يقطينيا

العالم القديم

ياسر بهبت

يتخيلون
The Knights of Arabic Authors

يقطينيا

العالم القديم

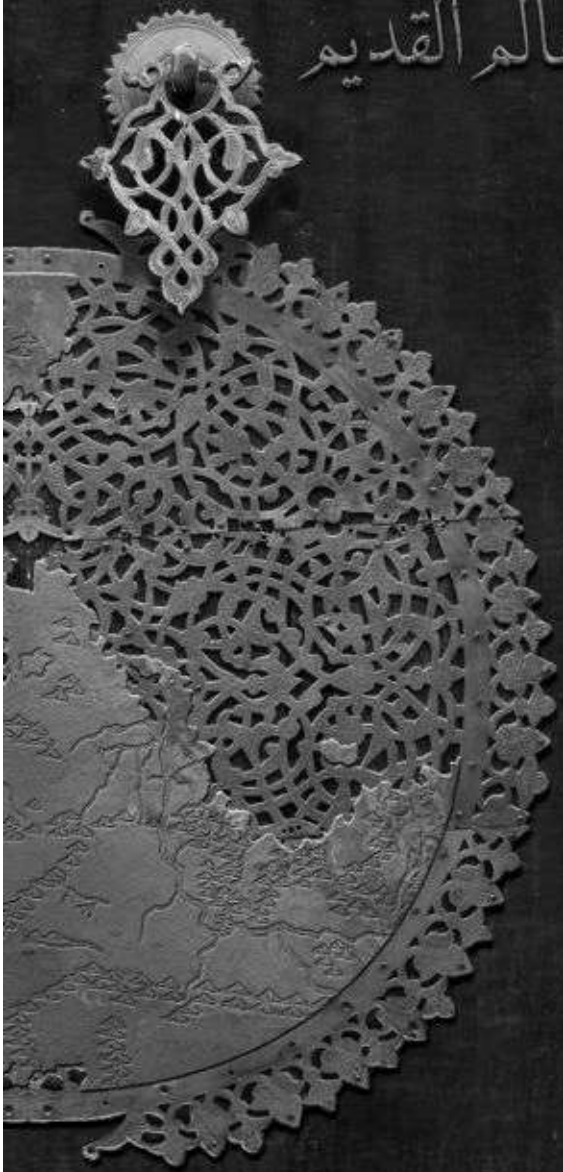

يتخيلون

ياسر بهجت

يفطينيا العالم القديم

ياسر بهجت
YBahjatt@

جميع الحقوق محفوظة Copyright © 2015
ISBN: 978-9948-18-096-8
متوفرة باللغة الإنجليزية Available in English

شكر وعرفان

أود أن أشكر د. آرلن آندروز الأب، والذي وضعني تحت الأضواء خلال جلسته في مؤتمر التنافسية 2012 ، ما أجبرني على التفكر جديا في صناعة الخيال العلمي العربي وكيفية العمل على إنشائها، إضافة إلى دعمهم المستمر لنا في هذا المجال. كما أود أن أشكر آرثر زاردز، الذي دفعني لتقديم فكرتي عن الخيال العلمي العربي إلى تيد، ما أعطاني دفعة قوية لإنشاء شركة يتخيلون. وأخيرا وليس آخرا، أود أن أشكر مشروع تيد للترجمة المفتوحة على خبرة الترجمة التي بنيتها من خلال البرنامج، والتي كانت أول منصة أنشر فيها أعمالي المترجمة، فهذه الخبرة كانت ضرورية لأتمكن من كتابة هذه الرواية.

البداية

يوم الأربعاء الحادي عشر من ذي القعدة للعام *584* لسقوط غرناطة *(س.غ)*

يجب أن أدون هذا التاريخ قبل أن يختفي، لا أملك الكثير من الوقت لأشرح لكم من أكون، ومن أين وكيف أرسل لكم هذه الكلمات، كل ما تحتاجون معرفته الآن هو أنني مؤرخ، أبحث في التاريخ، في فرع من علم التاريخ يسمى التاريخ السببي؛ حيث ندرس التاريخ كسلسلة متتالية من الأحداث يتسبب كل منها في تغيير مجرى التاريخ، ويقودنا إلى الحدث الذي يليه، ولقد بدأت دراستي هذه حينما اكتشفت وثيقة أندلسية غيرت مفهومي للتاريخ تمامًا. سأحاول أن أشرح لكم أكثر إذا أسعفني الوقت، ولكنني الآن أحتاج أن أنقل لكم نصوص الوثائق التاريخية التي وجدتها خلال بحثي الذي امتد لعقدين من الزمن عبر القارات، سأحاول نقل ما تحويه المخطوطات التي بحوزتي، فكل منها لها أهمية بالغة؛ لذا سأرسل ما تحويه كل مخطوطة بالكامل قبل أن أنتقل للأخرى؛ لا يوجد ترتيب حقيقي للمخطوطات. سأرتبها حسب أهميتها من وجهة نظري لتمكنكم من بناء صورة واضحة ومتكاملة. مع أن معظم ما سيصلكم مني هو نص ما في المخطوطات التي أمامي، إلا أنني قد أعلق على بعضها أو أضطر لملء الفراغ بما أعرفه إذا ما كانت المخطوطة بالية في ذلك الموضع، وفي مثل هذه الحالات سأبلغكم بذلك للحفاظ على الأمانة العلمية في نقل هذا العمل والذي هو نتاج ما أفنيته من عمري لكشف هذه الحقائق. كما أنني أعمل جاهدًا على توفير مستودع معلوماتي ليستوعب كل ما أستطيع الوصول إليه من حقائق وإشارات عن تاريخنا وحضارتنا ليمكنكم من فهم هذه المخطوطات بعمق أكبر.

من هذه المخطوطات مذكرات الباز المنقض، وهي مع ما لها من أهمية إلا أنها ليست مرتبة ترتيبًا تاريخيًّا، ويبدو أن الباز لم يكن يكتب مذكراته أولا بأول، وإنما يكتبها من ذاكرته التي تنشط أثناء الأحداث الأكثر أهمية، فتعود به إلى أحداث أخرى يعتقد أنها مرتبطة بها، وهذا ما يجعلها مخطوطة محورية في هذه الدراسة التاريخية؛ حيث إنها تعتبر أقدم وثيقة تاريخ سببي متكاملة.

(1)
الأُقْيانُوس

أواخر أيام ربيع المتأخر عام *291* *(* **س . غ** *)*

لقد مضى على هروبي من محبسي قرابة الثلاثة أيام، أعتقد أنهم لا يزالون يبحثون عني لاستجوابي كي يصلوا إلى بلادي وينهوا ما بدأوه قبل ثلاثة قرون للقضاء على الإسلام والمسلمين، أرجو من الله أن يجنبني تلك المحنة، وألا يضعني في ذلك الموقف ولا يجعلني سببًا في كشف سر بلادي بعد أن سترها الله عنهم. أحاول التخفي والنوم بالنهار والتحرك ليلا؛ ليصعب عليهم تتبعي والإمساك بي، وهذا يجعل مهمتي أكثر صعوبة؛ فأنا أحتاج أن أجد ما تبقى من حطام سفينتي لأتحصل على أدواتي وكتبي التي سأحتاجها لأكمل رحلتي وأتم مهمتي.

لا أعلم بالضبط كم مضى من الزمن منذ تحطم السفينة، ولكن هلال ربيع المتأخر قد شارف على الاختفاء، إن آخر ما أذكره هو تلك الليلة العاصفة، ليلة الأحد الثالث والعشرين من ربيع المتأخر، كانت أمواج الأقيانوس تتقاذف السفينة كأنها لعبة صغيرة لصبي يتبادلها مجموعة من الشباب ليحرموا صاحبها من الوصول إليها، امتلأت السماء بالغيوم السوداء، وأضيء الأقيانس بضوء البرق، وارتج الهواء بصوت الرعد، لاحظت أن الفترة الزمنية بين البرق والرعد تتناقص برتابة مؤكدةً بأننا مهما حاولنا لن نفلت من هذه العاصفة، وأن كل محاولاتنا لتفادي مركزها باءت بالفشل. كان الجميع يعملون جاهدين لتجاوز العاصفة بأدنى الخسائر، ولكن العاصفة كانت حسب وصف الربان من أشد العواصف التي واجهها، فهو لم يعبر الأقيانوس من قبل. عمت الفوضى سطح السفينة وهم يحاولون إنزال الشراع الذي التف على السارية، وفجأة! تبرق السماء في نفس اللحظة التي نسمع فيها صوت الرعد، لقد وصلنا إلى المركز. تردد صدى الرعد في أرجاء السفينة من شدته بعد أن فجر جانب السفينة الأيمن؛ حيث ضرب البرق، يبدو أن العقل البشري يتعامل مع الزمن بشكل مختلف عند الأزمات، إذ إنني أكاد أقسم أن الزمن قد توقف للحظة بعد وميض البرق قبل أن ينفجر جانب السفينة بوميض أشد من البرق ذاته. ماجت بنا الدنيا بعدها، لقد كان معظم البحارة مشغولين على سطح السفينة؛ إذ إن عدم السيطرة على الشراع يعني الدمار المحقق للسفينة، ولكن استمرار تدفق المياه يعني غرقها، فوجئت بالربان يمسك بي من كتفي ويسحبني بشدة ليأمرني بكل غلظة أن أنزل إلى باطن السفينة، وأساعد في إيقاف تدفق الماء. حين نزلت وجدت أن السفينة قد امتلأت بنقيضين يندر أن يجتمعا؛ فقد اندفع الماء إلى باطن السفينة بغزارة، بينما أضرمت النيران فيها، حاولنا السيطرة على الماء بترميم جانب السفينة من الداخل، ولكن بلا جدوى، فالفتحة التي تسبب بها البرق كانت بارتفاع رَجُلَين، وبعرض عشرة أذرع على الأقل. أذكر أنني كنت أمسك بلوح خشبي محاولا تثبيته في مكانه، بينما يطرق عليه أحد البحارة، أبرقت السماء؛ فرأيت موجة عملاقة متجهة نحونا، أمسكت بجانب السفينة بكل ما أوتيت من قوة، وأغمضت

عيني منتظرًا لحظة ارتطام ماء البحر البارد بجسدي، مضت تلك اللحظة كأنها دهر، تذكرت فيها كل الأحداث التي أوصلتني لهذه اللحظة، الأحداث التي بدأت بفتنة عمت يقطينيا..

كيف بدأت الفتنة، كيف تسببت في تفرقة جمعنا، كيف زعزعت عقائد الناس، تذكرت خوف أمي الشديد حين علمت بما أنوي فعله من أجل معرفة الحقيقة وإنهاء هذه الفتنة، كيف هربت من حبسي الذي حبسني به أبي لمنعي من مخالفة القانون الأول في يقطينيا والذي يمنعنا من عبور الأقيانوس، كيف وصلت إلى هذه السفينة وكيف تفادينا العسس لننطلق في الأقيانوس شرقًا.

كل تلك الذكريات تلاطمت في عقلي كما يتلاطم البحر أمامي الآن، ومع تلك الخاطرة، تذكرت الموجة التي يبدو أنها أخذت دهرًا لتصل إلي، فتحت عينيَّ في نفس اللحظة التي غمرتني بمائها الصاقع، حاولت أن أتمسك بأي شيء، إلا أن البحر سحبني، وألقى بي بين أمواجه المتلاطمة، تصارعت مع الأقيانوس لأمنعه من التهامي، ثم أظلمت الدنيا من حولي.

□□□□□□□□□□

تحفزت حواسي كلها فجأة، كنت ملقى على وجهي في شاطئ قد أوقدت الشمس في رماله حرارة لم أعهدها، لا أعلم كم مضى عليَّ وأنا على تلك الحال، جسمي كله يؤلمني، وظهري قد احترق من الشمس والأملاح، الأمواج تصطدم بقدميَّ، أشعر بعطش شديد، وشعرت بخطوات في الماء تقترب مني. تحفزت كل خلية في جسمي للتحرك، إلا أنني آثرت عدم الحراك، آملا أن أكون مخطئًا، أو أن يمضي بعيدًا عني، ولكن إذا كان ما يقال عن هذه الأرض صحيحًا، فلا أمان لأهلها، ولن يتركوني وشأني. توقفت الخطوات وشعرت بنصل سيف ينغز ظهري، في تلك اللحظة استعاد جسمي كامل طاقته، واستذكر ذهني كل ما تعلمته من فنون القتال، وأهمها المباغتة. تحركت ساقي اليمنى بسرعة لتضع قدمي خلف ساق مهاجمي، وسحبها بقوة ليختل توازنه ليسقط على ظهره مبعدًا سيفه عن ظهري، ثم أدرت جسمي بقوة حول خصري؛ لتقوم قدمي اليسرى بركل السيف من يده وهو يسقط لترمي به بعيدًا وأجرده من سلاحه، سقطت على ظهري الذي صعق من الألم حين لامس الرمال المبتلة بماء البحر؛ لما فيه من تحرقات، تجاهلت ألمي، فأنا الآن أحتاج أن أقف قبل خصمي، دفعت جسدي للأعلى لأقف ناظرًا في عيني خصمي المذهولتين، فأسرعت إليه بركلة في رأسه أفقدته الوعي.

في تلك اللحظة تنبهت للظلال من حولي، التفت فإذا بي محاصر بثمانية من المحاربين، كل منهم مشهر سيفه تجاهي، اتخذت وضعية القتال، وكل ذرة من جسمي تنتظر حركة أولهم تجاهي لتنفجر، تردد صوت جهور أجش من خلف المحاربين " توقفوا".

التفت إلى مصدر الصوت؛ فتصلبت للحظة، رأيت عملاقًا يناهز الأربعة أذرع،

بشرته سوداء بسواد الليلة غير المقمرة، لابد أنه مارد، لم تكتمل تلك الخاطرة بنفسي، إذ شعرت بألم شديد في مؤخرة رأسي، ثم أظلمت الدنيا من جديد.

□□□□□□□□□□

استيقظت من سباتي على صوت أذان، وللمرة الثانية أجد نفسي ملقًى دون أي شعور بالزمن، أنا الآن على طاولة خشبية في زنزانة لها نافذة مغطاة بقضبان حديدية، ويواجهها قضبان حديدية ممتدة من سقف الزنزانة إلى أرضها، يتوسطها باب، يبدو أن الزنزانة على أحد أطراف ساحة واسعة، أرى بوضوح مجموعة من الصناديق الخشبية الملقاة على الجدار المقابل لزنزانتي، أكاد أجزم أنها من سفينتي، ميزت صوت الأمواج الهادئ، لابد أننا بجوار الشاطئ، تعلقت بقضبان النافذة لأرفع رأسي، علني أتعرف على مكاني أو على أقل تقدير تحديد الاتجاهات واتجاه القبلة، رأيت الشمس تغرب في الأقيانوس مقابل النافذة تمامًا، جلست على أرض الزنزانة لأتأمل في أرجائها، كانت جدرانها حجرية، نحتت عليها كلمات ونقوش، سقفها مرتفع، وضع في أحد أركان الزنزانة إبريق، وألقي في منتصفها صحن تناثر فيه ما أعتقد أنه طعام، أخذت الإبريق وشممت ما فيه لأتأكد من ماهية ما بداخله، أخذت منه شربة؛ فقد كنت في شدة الظمأ، ثم صببت منه على يدي وتوضئت، وقفت معطيًا ظهري للنافذة وكبرت لأصلي، تملكني شعور لا أعرف كيف أصفه، فأقرب ما يمكن أن أصفه به أني شعرت بأنني قد تكشفت، صحيح أن قميصي كان ممزقًا، ولكنني لم أكن متعريًا، لا لقد كان سبب ذلك الشعور هو أنني - ولأول مرة في حياتي- أصلي دون أن أقبض بيميني على مقبض سيفي وهو معلق على جانب خصري الأيسر، ولا بيساري على مقبض خنجري المعلق على كتفي الأيمن، هل جردوني من سلاحي؟ أم أنني فقدته في الأقيانوس بعد أن تقاذفتني أمواجه؟ لا أذكر، تنبهت أنني قد شردت بذهني عن الخشوع في صلاتي؛ فعدت أحاول الخشوع بأن أدفع عقلي بعيدًا عن التفكير فيما أنا فيه، والتركيز فيما أتلوه من آيات، ولكن يبدو أن القدر لم يكتب لي أن أخشع في ذلك المكان؛ فقد تنبهت حواسي فجأة وأنا ساجد، إذ سمعت صوت خطوات تقترب، كانت ردة فعلي تلقائية؛ إذ اعتصرت قبضتي اليسرى وهي على كتفي الأيمن في حركة لا إرادية متوقعة أن تعتصر مقبض الخنجر تأهبًا لسحبه إذا احتاج الأمر، شعرت بالألم من أظافري التي غُرست في يدي باحثة عن الخنجر، جاهدت نفسي لتعود لرخائها، بينما أرهفت السمع، لقد كانت خطوات لرجلين، يبدو أن أحدهما متوسط القامة والحجم، والآخر عملاق، أكاد أجزم أنه نفس المارد الذي رأيته عند الشاطئ، أرهفت السمع أكثر محاولا سماع حديثهما، في البداية كان صوتهما خافتًا جدًّا لا أميز منه شيئًا، ومع اقترابهما ميزت صوت أحدهما الأجش، إنه بالفعل ذلك المارد: " ولكن من هو هذا الرجل؟"

" لا ندري بعد، ولكنني لم أرَ أبدًا مثل الأنقاض التي كانت من حوله".

" لماذا؟ تبدو لي كأي صناديق تقذف من سفينة متحطمة" تساءل المارد.
" إنها كذلك، ولكن محتوياتها غريبة، بها كتب خُطت بالعربية لكتّاب لم أسمع بهم من قبل" ، ثم توقف حديثه للحظات تغيرت فيها خطواته، وسمعت صوتًا خافتًا كأنما يبحث في حقيبة معه، ثم أضاف " كما أننا وجدنا هذه ضمن ما وجدنا".
" لابد أن من قام برسم هذه فنان ماهر، من هؤلاء؟ وما هذا الزي الغريب؟ هل رأيت أحدًا يضع مثل هذا الريش في عمائمهم من قبل؟" قالها المارد باستغراب.
" إن دقة الرسم والتفاصيل فيها لا يمكن أن تكون من صنع بشر" ، يبدو أنهما يتحدثان عن بعض الظليلات التي وجدوها ضمن متاعي. عجبًا ألم يروا مثلها من قبل؟! كنت قد جلست للتشهد الأول ورأيت ساقيهما تصل أمام زنزانتي ليقف المارد أمامي تمامًا، وقفت من جلوسي لأقف الآن مواجهًا لهما، رفعت عينيَّ لأتفحصهما، ثم التقت عيناي بعيني المارد؛ فلم أفارقهما وأنا أكمل قراءتي سرًّا، ثم كبرت لأركع وقد توقفا عن الحديث تمامًا. أتممت صلاتي، وحين سلمت التقت عيناي بعيني المارد مرة أخرى فلم أجانبهما، ووقفت دون أن أثني عينيَّ عنه محاولا أن أدعي بأنني لست خائفًا منه، وأنني له ند.
" من أنت؟ ولماذا هاجمت رجالي؟" قالها لي المارد بصوته الأجش، وبلهجة واضحة الغضب.
لم أكترث كثيرًا لما يريده، ولكنني أحتاج إلى فهم الموقف. " كيف تتحدثون العربية؟ ولماذا قمتم برفع الأذان؟"
" عجبًا! ألم تؤدِّ الصلاة؟ فلمَ السؤال عن الأذان؟ ما هذه الأدوات التي في حطام سفينتك؟ من أي البلاد أنت؟" ، هذا ما توقعت، إنه لم يدارِ اهتمامه بموطني، لن أخبرهم بأي شيء، لن أكون سببًا في خراب يقطينيا.
" لن أجيب على أسئلتكم حتى تجيبوني أولا، من أنتم؟ كيف تتحدثون العربية؟ هل أنا في الأندلس؟" يجب أن أعرف كيف حافظوا على علمهم باللغة العربية، وبشعائر الإسلام بعد أن قضوا على العرب والمسلمين في الأندلس!
" الأندلس! لقد سقطت الأندلس منذ ما يقارب الثلاثة قرون" ، قالها مساعده باستهزاء. رماه المارد بنظرة نارية أخرسته وجعلته ينسحب للجدار الخلفي لتفحص حطام سفينتي.
عاد المارد بنظره نحوي: " أنت بالمغرب، جنوب ما كان يسمى بالأندلس. أنا الأغا عنترة، قائد الجيش العثماني بهذه البلاد، وهذا الكخيابك حمزة. هل تعرف من أنت؟" المغرب؟ نعم سمعت بها في ما يحكى من أساطير عن الأندلس. عجبًا من أسمائهم! فهي أسماء عربية، يبدو أن أغا، وكخيابك رُتب عسكرية.
" بالتأكيد أعرف من أنا، أنا الباز المنقض، ابن الذئب الحكيم شيخ قبيلة شيروكة"
" أهذه أحد قبائل الأندلس؟" ، سألها بنبرة يبدو فيها الاهتمام والتعاطف لم أفهمها.
توترت بعض الشيء حين عاد حمزة بقطعة جلدية مهترئة وممزقة ليعرضها

على عنترة الذي تفحصها باهتمام بالغ. كنت أعلم جيدًا ما رسم على ذلك الجلد، إنها خارطة ليقطينيا.

" ما هذه الخارطة؟ أين يقطينيا؟" هذا ما خشيته، أن أتسبب بتهوري في هذه الرحلة بتدمير يقطينيا، وأدل العدو عليها بدلا من أن أساعد في الحفاظ عليها من الفتنة التي بدأت في التفكيك بين أواصرها. كنت أعلم باحتمالية حدوث هذا، ولكنه كان خطرًا لابد من مواجهته، لم يترك لي الموريون خيارًا، كان لابد أن أضع حدًّا لهذه الفتنة، لابد أن أجد ما يثبت أو ينفي ما يقوله الموريون قبل أن تقضي الحرب الأهلية في يقطينيا على الأخضر واليابس.

" لن أعطيكم أية معلومات إضافية تكشف عن موطني" قلتها ثم أدرت ظهري للأغا عنترة، وجلست مجددًا على الأرض.

" إذًا ستبقى هنا إلى أن نعرف، يا حمزة احمل هذه الصناديق إلى غرفتي لأطلع عليها بتأمل" قالها عنترة، ثم سمعت حركة جهة الجدار حيث ألقي حطام سفينتي، أعتقد أن مجموعة من الجنود يقومون بحملها إلى غرفته. هذا غريب، وكيف سمعت الأذان والإقامة من الخارج؟ لابد أن هذه خدعة محكمة لخداعي، يجب أن أتنبه، يجب ألَّا يعلم أحد كيفية الوصول إلى يقطينيا، لقد كان الموريون صادقين، لو علم هؤلاء بنا فسيرسلون جنودهم لإنهاء ما بدأوه في الأندلس منذ مائتين وتسعين عامًا. يجب أن أهرب من هنا وأقضي على كل ما يدل على يقطينيا، ولكن كيف؟ تفحصت باب الزنزانة، إن ما يمسك المزلاج قفل حديدي صدئ، يمكنني كسره بسهولة لو صببت عليه أحد الأحماض القوية، كانت لدي مجموعة كاملة في حقائبي، تفرست بنظري في الأنقاض الملقاة في الساحة أمام الزنزانة، كانت الإضاءة خافتة ومتقلبة، أحتاج إلى التركيز الشديد لأتمكن من تمييز هذه الأنقاض من هذه المسافة، جلست القرفصاء، ووضعت يديَّ على ركبتيَّ، وأغمضت عيني، أخذت نفسًا عميقًا، وبدأت رحلة التأمل التي علمني إياها معلمي صقر الأكابر، كان دومًا يقول لي: " يا باز، حين تحتاج إلى شيء فعليك أولا بربط روحك بالله علام الغيوب، وذلك بإخلاء عقلك من كل شيء عدا حبك لله، ورجائك في رحمته، ثم التسبيح والاستغفار، فإذا شعرت بنقاء نفسك وقوة صلتك بالله فاتلُ قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ ، وكرّرها حتى ترى حاجتك رأي العين، فإذا رأيتها بعين عقلك كما لم ترها عينك من قبل، حينها افتح عينيك، وتأمل ما حولك، فإنك إن لم تجدها فستجد ما يدلك عليها" ، جعلت أردد ما أذكر من التسبيح والاستغفار مناجيًا ربي، لا أدري كم مضى بي من الزمن وأنا كذلك، ولكن بعد فترة ليست بالقصيرة، بدأ شعوري بما حولي يخفت، وشعرت وكأن روحي قد خرجت من جسدي؛ فلا تشعر به ولا بحواسه، بدأت باستحضار حقيبتي المليئة بالمحاليل والمواد، لقد كانت حقيبة جلدية قديمة، أهداها لي جدي حين حصلت على إجازتي الكيميائية الأولى، قال لي إنها كانت حقيبته الكيميائية الأولى حين كان في صباه، كتب اسم جدي

" العقرب الحليم" على جانبها بخط يده، وقد تآكلت بعض أطراف الحقيبة، كانت ربطتها التي أحملها منها مصنوعة من حبل سميك أخضر اللون، فتحت الحقيبة، ورأيت ما بها من قوارير وزجاجات، اقتربت منها كأنما كنت ذبابة تحوم حول الزجاجات، لقد كان كل شيء يبدو عملاقًا جدًّا، بدت لي النقوش التي نحتها صانع الزجاجة عليها واضحة، لم ألحظ من قبل مدى دقة هذه النقوش، ولا اعتزاز ذلك الصانع بإتقان صنعته، هذا ما كنت أبغي، إنني أراها كما لم أرها من قبل، يجب أن أفتح عينيَّ الآن، فتحت عينيَّ ولم يتغير شيء لا زالت الساحة بضوء نيرانها الخافت المتقلب، عدت للتأمل في الصناديق والأنقاض الملقاة، ووقعت عيناي على حبل سميك أخضر اللون، يبدو لي وكأنه وهج يظهر من بين الصناديق، تلك هي الحقيبة، ولكن كيف أحصل عليها، لابد أن أجعل أحد هؤلاء الحرس يأتيني بها، وقفت من جلستي، وجعلت أتأوه وأنا أدق على قضبان الزنزانة، وتراخت ركبتاي، وجعلت أتحامل على القضبان لأبقى واقفًا، وما لبثت أن سقطت أرضًا وأنا لا أزال أضرب على القضبان، ولكن ضرباتي كانت تتخافت وتضعف، فجأة! رأيت قدمي أحد الحراس أمام وجهي مباشرة على الجانب الآخر من القضبان.

" ما بك؟" قالها باقتضاب.

" بي مرض عضال، وأحتاج إلى ترياقي"

" وما شأننا بذلك، هل نبدو لك كمشفى؟"

" فقط أحتاج إلى ترياقي من تلك الحقيبة ذات الحبل الأخضر" قلتها وأنا أشير بيدي المرتعشة نحو الحقيبة.

نظر الحارس إلى ما أشير، تحرك بخطوات ملولة نحو الحقيبة، التقطها وفتحها مُقلبًا ما فيها، " انتبه لا تكسر زجاجاتها" قلتها بخوف حقيقي، فلو كسر إحدى زجاجات الأحماض فستأكل في يديه وفي الحقيبة.

عاد بها، وقد حمل وجهه ابتسامة ساخرة، أعرف تلك الابتسامة جيدًا، فهو لا ينوي إعطائي أي شيء من الحقيبة، بل أكاد أجزم أنه سيلقي بقنينة ترياقي على الأرض ليهشمها. حسنًا، يمكنني الاستفادة من خبث هذا الجندي، مددت يدي إلى إبريق الماء وقربته مني.

" أي هذه القِنان فيه ترياقك؟"

" إنها قنينة زجاجية زرقاء بحجم المشمشة تقريبًا"

أخرج الجندي القنينة وجعل يهزها في يدة بينما امتدت ابتسامته الشامتة وهو يقول:

" هذه هي؟"

" نعم نعم، أرجوك تنبه ولا تسقطها فزجاجها هش".

نظر إليَّ بتهكم، ثم فتح قبضته تاركًا القنينة لتسقط من يده وتتهشم على الأرضية الحجرية، ومع تهشم القنينة تردد صدى صوته وهو يقهقه بفظاظة. هذا ما كنت أنتظره تمامًا؛ فقهقهته هذه ستجبره على أخذ أنفاس عميقة من

الدخان المتصاعد، في لحظة تهشم القنينة رفعت الإبريق إلى وجهي مجبرًا الماء بداخلها على ملء أنفي، أعتقد أن الجندي ظن أنني على وشك الاستفراغ، فقد سمعت قهقهته تزداد حدة، إلى أن توقفت فجأة، لست متأكدًا، أكان ذلك بسبب تنبهه للدخان المتصاعد من موضع انكسار القنينة أم من أثرها عليه! رفعت رأسي من الإبريق وأنا لا أزال أمسك أنفاسي، رأيت جسد الجندي ينهار في نفس تلك اللحظة، ومع انهياره سقطت حقيبتي من يده متسارعة باتجاه الأرض الحجرية. مددت ذراعيَّ من بين القضبان لألحق بها قبل سقوطها، الحمد لله، لقد وفقني للحاق بها في اللحظة الأخيرة قبل أن يُكسر ما فيها على الأرض. سحبت الحقيبة إلى داخل الزنزانة، وقلبت ما فيها حتى وجدت ضالتي، أخرجت قنينة الحمض، وسكبت بضع قطرات منها على القفل. حسنًا، يجب أن أنتظر لبرهة من الزمن قبل أن أتمكن من كسر القفل.

ظهر ظل يتحرك في الساحة الخارجية مع صوت خطوات قادمة، زادت سرعة الخطوات وهي تتجه نحو زنزانتي، خبأت الحقيبة أسفل السرير الخشبي، وصل صاحب الخطوات أمام زنزانتي، ثم نزل على ركبتيه وهو يصيح بغضب:

" ماذا حدث هنا؟"

" لا أعلم سيدي، لقد سقط فجأة".

" هل أبدو لك كأحمق؟ ابتعد عن الباب" ، قالها وأمسك بالقفل ليدخل فيه المفتاح، ثم صرخ بألم، لابد أن الحمض قد اخترق القفل، قفزت بسرعة، وأمسكت برأس الجندي، وسحبته بسرعة تجاه القضبان، صرخ الجندي من الألم وهو يحاول الإفلات من يدي، فسحبت رأسه مرة ثانية تجاه القضبان ليفقد وعيه هذه المرة. سحبت سيفه من غمده، ثم ضربت به القفل بقوة، وبعد عدة ضربات انكسر القفل. يبدو أن هذا المكان ليس به سوى بضع حراس متفرقين، وإلا لسمع أحدهم كل هذا الضجيج وأسرعوا للتصدي لي.

دفعت باب الزنزانة، وخرجت مسرعًا نحو ما تبقى من حطام سفينتي، قلبت بين الصناديق أبحث عن كتبي وأسلحتي؛ فلم أجد سوى حقيبة كيميائية أخرى تكسرت معظم قِنَانِها، أخرجت ما تبقى بها من قِنان، ووضعتها في حقيبتي، ألقيت بعض المساحيق التي معي على الحطام متسببًا في اشتعاله لأخفي أي أدلة قد تحملها عن موقع يقطينيا، عدت إلى زنزانتي وأخذت بضع قطع من البصل من صحن الطعام، ثم أسرعت خارجًا من الساحة أبحث عن غرفة عنتر علني أسترد بعض مقتنياتي.

وجدت غرفة مغلقة بباب خشبي ثقيل، كان الباب موصدًا، ضربته بقوة وقد أخرجت قنينة أخرى تحمل نفس سائل التنويم الذي أفقد الجندي وعيه، وجدت عنترة يقف خلف مكتب خشبي قد تآكل بعوامل الزمن ورطوبة البحر، كان يهم بالتقاط سيفه من الجدار المقابل له.

" إياك أن تتقدم للإمساك بذلك السيف".

" وكيف ستمنعني؟"

" أنا لا أريد إيذاء أحد، فقط دعني آخذ حاجياتي وأرحل بسلام أيها المارد".
" مارد! أنت فعلا مجنون. من أنت؟ وكيف خرجت من زنزانتك؟"
" قلت لك أنا الباز المنقض، ابن شيخ قبيلة شيروكة، ولا أستطيع البوح بأكثر من ذلك".
زمجر عنترة بغضب وتحرك بسرعة تجاه سيفه، ما أن حمله وجه نصله إليَّ وهو يقول:
" الآن، تحرك أمامي ببطء لأعيدك إلى زنزانتك".
" أعتذر لك مقدمًا على آلام رأسك".
ألقيت القنينة بين قدمي عنترة، وأمسكت بقطعة بصل على أنفي، تصاعد دخان كثيف من موضع تهشم القنينة، نظر عنترة باستغراب إلى الدخان، ثم نظر إليَّ بغضب عارم، وما كاد أن يخطو خطوة واحدة تجاهي حتى سقط أرضًا، توجهت نحو الصناديق الملقاة في زاوية الغرفة، وجدت حقيبة جلدية أخرى بها مجموعة من الزجاجات المليئة بالسوائل ذات الألوان المختلفة والرمال الملونة. أخذت غالبيتها ووضعتها في حقيبتي، وألقيت الحقيبة على مكتب عنترة، جعلت أبحث وأقلب في الصناديق، أخذت مخطوطة ووضعتها في الحقيبة، ثم توجهت إلى المكتب وتفحصت بعض ما عليه، فأخذت الأدوات الملقاة عليه ووضعتها في حقيبتي كذلك مع مخطوطتين وأحد الكتب، ثم أخذت ما تبقى على المكتب ووضعته في الصناديق.
تفحصت الصناديق من الخارج حتى وجدت صندوقًا عليه أثر جزء من رمز للصقر، فركلته بأسفله لينكسر وتظهر داخله حجرة وضع فيها سيف وخنجر وحزام حامل لهما.
أخرجتهما من غمدهما لأتأكد من لون النصل البرتقالي المائل إلى اللون الذهبي. هذا سيفي الذي أعطاني إياه أبي يوم أصبحت رجلا، أخرجت الحزامين، وربطت أحدهما بخاصري والثاني على كتفي الأيمن ليلتف حول صدري، ثبت الخنجر في غمده عند كتفي والسيف في خاصري، أخرجت زجاجة بها سائل أزرق، وأخرى بها رمال سوداء من الحقيبة التي ألقيتها على المكتب، ثم ألقيت الزجاجة السوداء بجوار الصناديق؛ فانتثرت الرمال السوداء، ونظرت إلى عنترة الملقى على الأرض:
" أعتذر عن هذا، ولكنك لم تترك لي مجالا آخر".
ثم ألقيت الزجاجة الثانية؛ حيث ألقيت الأولى، وما كاد السائل المتناثر منها يلامس الرمال السوداء حتى اشتعلت نارًا وانتشرت النيران إلى الصناديق، وألقيت الحقيبة التي كانت فوق المكتب فوق الصناديق، رفعت عنترة وسحبته إلى الخارج.
خرجت من مبنى الاحتجاز وأنا أجر عنترة والدخان يتصاعد من داخل المبنى، ولم أكد أخرج من المبنى حتى سمعت أصوات طبول قوية تدوي في المكان، وسمعت صوت امرأة تصيح:

" أبتِ!!!"

نظرت مفجوعًا إلى الفتاة التي تقف على خطوتين مني، كانت تحمل كتابا ذا غلاف جلدي سميك قد أتلفته مياه البحر يلمع على ضوء النيران جزء من اسم الكتاب الذي كُتب بماء الذهب " دليل طرق التـ-- بالمسمع والمـ-- " ، هذا ما كنت أبحث عنه، لابد وأن أحصل على هذا الكتاب، هممت بخطف الكتاب منها، إلا أنني فوجئت بسهم يغرس في الأرض بيني وبينها، وسمعت صوتًا ينادي من بعيد:

" إنه هنا بالساحة".

وقفت لأجري كالريح وأتخفى بالظلام، نظرت نظرة خاطفة إلى الخلف لأجد حمزة يجس نبض عنترة، وسمعته يقول للمرأة:

" هل أنتِ بخير؟"

" نننعم، كيف أبي؟"

" إنه يبدو فاقدًا وعيه"

" حمدًا لله، ولكن ماذا حدث؟ من هذا الرجل؟"

" لسنا ندري، كل ما قاله إنه من قبيلة شيروكة"

" من هي قبيلة شيروكة؟!"

(2)

الفتنة

الجمعة الثاني من شوال عام *290* س . غ .

فتحت عينيّ متضجرًا من صوت الطرق المزعج على باب بيتنا، وضعت الوسادة على رأسي، علني أمنع ذلك الصوت من الوصول إلى أذنيَّ لأعود إلى نومي، ازداد الطرق شدةً وأنا لا زلت أقاوم بتثاقل رغبة الخروج من فراشي لأنظر من بالباب، فحتمًا سيقوم غيري بالاهتمام بذلك. مضت الدقائق ولا يزال الطرق مستمرًّا وبعصبية واضحة، فركت عينيَّ وأنا أتثاءب حانقًا على من بالباب أن أجبرني على الخروج من فراشي وقد كنت آملا أن أمضي يومي كله في كسل بعد يوم العيد الحافل. ارتديت إزاري وخرجت من غرفتي أتلفت مستغربًا لم لم يقم غيري بفتح الباب؟! وصلت إلى باب الدار، ولا يزال الطارق مستميتًا في طرقه، فتحت الباب فجأة لأربك الطارق، فإذا بابن الخليفة، فداء الدين يكاد يسقط وقبضته في طريقها إلى وجهي، قبضت على ذراعه في حركة دفاعية وقلت ضاحكًا:

" ما بالك يا فداء؟ حتى أنك نسيت كل ما علمنا إياه شيخنا عن التوازن والتعامل مع المفاجأة"

نظر إليَّ فداء بينما يلتقط أنفاسه وقد بدا التوتر على وجهه، قال بتوتر: " ما بلك لا تجيب طرقاتي؟ ألم تسمع بما يحدث؟!"

" وما الذي يحدث؟ هل أشرقت الشمس من المغرب؟" قلتها باستهتار واضح وأنا أتمطى.

" لا وقت لدينا الآن لسماجتك؛ فالأمر جلل، تهندم والحق بي على ساحة قصر الخلافة" ، قالها وهو يرفع نفسه ليمتطي فرسه. " لقد ثبتت الإشاعة، لقد خرج البارحة العديد ممن ينكرون وجود العالم القديم علنًا" وانطلق مسرعًا باتجاه القصر.

لاحظت أنه لا يوجد غيري بالمنزل، أين ذهبوا يا ترى في هذا الصباح الباكر؟! خرجت إلى باحة المنزل لأتفحص الساعة، لا يزال الوقت مبكرًا جدًا على صلاة الجمعة، تحركت باتجاه غرفة الطعام بكسل علني أفوز بقطعة عجين من يد أمي قبل أن يقضي عليه باقي من بالمنزل. عجبًا! لا أشم أية رائحة، وصلت إلى غرفة الطعام، لا توجد أي نيران موقدة، أين أمي؟ هذا ليس من طبعها، فإفطار يوم الجمعة من الطقوس العائلية التي لا تفرط فيها أمي أبدًا!! أين الجميع؟!

بالرغم من مكانة أبي وموقعه بحكم أنه شيخ قبيلة شيروكة، إلا أنني لم أكن يومًا من المهتمين بما يحدث من أمور إدارة البلاد والرعية. فقد تركت تلك المسائل المعقدة لأبي وأخي الأكبر، أما أنا فقد كرست وقتي في تعلم فنون القتال والحرب والفروسية من أفضل الفرسان والمقاتلين وقادة الجيوش. أعلم أن أبي وأخي كانا يتناقشان كثيرًا في الآونة الأخيرة عما يتهامس به الناس من نقاش عن حقيقة العالم القديم والموريين، ولكنني كنت أجد لنفسي أي عذر للانسحاب من النقاش خصوصًا إذا احتدم بينهما وحاول أحدهما إحراجي بطلب

إبداء رأي في تبعات وآثار هذه الإشاعة أو غيرها.

لابد وأن اختفاء جميع من بالمنزل له علاقة بما قاله لي فداء للتو، لابد وأن الخليفة قد أرسل في طلب أبي، ولابد أن أبي قد اصطحب أخي معه كعادته؛ فهو يعده ليكون شيخ قبيلتنا، ولكن أن تذهب أمي معهما لقصر الخلافة، فهذا يعني أن الأمر جلل، وأنها ذهبت لتكون مع زوجات الخليفة، فهي ليست زوجة حكيم أحد قبائل يقطينيا فحسب، ولكنها ابنة خالة الخليفة، وتربطها بزوجته علاقة حميمة منذ طفولتهما. ولكن لم طلب مني فداء أن ألحق بهم إلى القصر؟ فأنا لا علاقة بي بمثل هذه الأمور، ولم يطلب مني يومًا أن آتيه إلى القصر سوى للتسامر أو للمبارزة. عدت إلى فراشي وتجاهلت فداء تمامًا، أعلم أن هذا سيغضبه، ولكنني واثق من أنني سأستطيع مراضاته بعد صلاة الجمعة إذا تركته يهزمني في المبارزة القادمة، إلا أنني لم أستطع العودة للنوم، فقد تسلل الفضول إلى رأسي وملأه بالتساؤل حتى تصدع، لا أستطيع المقاومة، لابد أن أعرف، قفزت من فراشي ولبست حلتي الرسمية، وتقلدت سيفي وخنجري، انطلقت مترجلا باتجاه القصر فهو ليس بالبعيد، ومراسم الدخول بالفرس في إصطبلات القصر مزعجة ومملة، وأنا في عجالة من أمري.

وصلت إلى حمى القصر، وبالرغم من أن صلاة الجمعة لا تزال بعد بضع ساعات، إلا أن جامع القصر قد امتلأ، ولا يزال الكثير من المصلين يفدون عليه في هذا الوقت الباكر، ويفترشون الساحات من حوله، أسرعت الخطى وأنا أشق طريقي بين الجموع حتى وصلت إلى باب القصر حيث أوقفني أحد الحرس:

" عذرًا يا باز، الدخول إلى القصر محظور اليوم".

" أنا هنا بناءً على طلب فداء شخصيا"

" أعتذر لك مجددًا، ولكن أوامري واضحة ومباشرة من الخليفة بألا أسمح بدخول أحد ما لم يبلغني بذلك أحد من القصر، وفداء لم يبلغني بالسماح لك بالدخول".

عدت أدراجي وتحركت بين الحشود، إن كل ما يحدث يزيدني فضولا ورغبة في معرفة ما يحدث، أحتاج أن أصل إلى الخليج الذي يطل عليه القصر، فهناك ممر مائي يصل إلى داخل أسوار القصر، وأعتقد أن الحرس لن يراقبوه اعتقادًا منهم بأنه لن يقوم أي مجنون بالغوص في الخليج في هذا الشتاء البارد، تحركت ببطء حتى لا يتنبه لي أي من الحرس، خطوت ببطء متعمقًا في الخليج، ثم أجبرت جسدي بالغوص دفعة واحدة بالرغم من رغبته العارمة في الخروج من ذلك الماء شبه المتجمد. بعد سباحة لدقيقة أو يزيد تحت الماء، خرجت داخل أحد سراديب القصر التي أحفظها عن ظهر قلب، خرجت من السرداب، وأسرعت للوصول إلى بلاط الخليفة. وصلت إلى مجلس الحكم الذي اكتظ بمشائخ القبائل ومجموعة من الوزراء، وقادة من الجيش والعسس، يتصدرهم الخليفة الوضاء بن سراط الحق الموري، وأنا أقطر ماءً، تردد صدى صوت خطوات خفيَّ المليئين بالماء في القاعة، توقف الحديث تمامًا، وتوجهت الأنظار إليَّ، سقط فك فداء وهو

ينظر إليَّ بدهشة، ورماني أبي بنظرة نارية ليس لها سوى معنى واحد " سأقتلك حين نعود إلى المنزل" ، توقفت عن الحركة، وتبسمت ببلاهة وأنا أشير للخليفة بأن يكمل حديثه.

قال الخليفة وهو ينظر إلى أبي:

" كما كنت أقول قبل أن يقطع ابنك الباز حديثنا، يجب أن يكون الرد على ما قام به الغوغاء بالأمس سريعًا وصارمًا".

" إن الرد على هذه الجموع بالقوة والجنود لن يقوم إلا بإشعال نار الفتنة، فتحركات هذه الجموع لم تكن مجموعة من أعمال التخريب والعنف المجرد، وإنما كانت مرتبطة بقناعة هؤلاء بزيف ما تقوم عليه خلافتكم الرشيدة" قالها أبي وهو ينظر إليَّ بغضب شديد، يظهر مدى عدم رضاه عن حضوري في هذا الوقت وبهذه الحال.

" فما هو الحل في نظرك إذًا؟ هل نتركهم ليعيثوا في الأرض فسادًا ويقول العامة إن الخليفة لا يملك ردع المعتدين ولا عقاب المفسدين؟".

" لم يكن أبدًا هذا ما أرمي إليه، فالعقاب يجب أن يصل إلى كل من أفسد وأخطأ، ولكن في نفس الوقت يجب التصدي لهذه الفتنة والعمل على إعادة ثقة الرعية، يجب أن تخطب فيهم وتذكرهم بما أنعم الله عليهم منذ أن حللتم علينا..."

قاطعه المثنى قائد الجيوش:

" خطب ونقاش وتذكير وإقناع... لم كل هذا التخاذل؟ نحن نملك القوة للتعامل مع أمثال هؤلاء ليكونوا عبرة لمن لا يعتبر، أين حميتك للخليفة، أم أن ولاءك لبني جلدتك الذين يحاولون زعزعة حكمه؟"

ضرب الخليفة بقبضته على المنضدة التي التفوا حولها، وقال بغضب:

" كفى... ها أنت يا مثنى تؤجج الفتنة ومن داخل بلاطي! كيف تجرؤ على التشكيك في ولاء حكيمنا أو غيره من رعيتنا في حضرتي أو حتى في غيابي؟ لقد أصاب حكيم بني شيروكة في نصحه وتخوفه، عليَّ أن أتحدث مع رعيتي، وأذكرهم بما أنعم الله علينا من أمن وأمان".

لا أعرف ما الذي اعتراني، فأنا أذكى من أن أتحدث في بلاط الخليفة وبحضرة أبي دون أن يطلب مني ذلك، ولكنني ولسبب لا يعلمه إلا الله نطقت:

" ولكن لماذا لا يرسل الخليفة بمن يعبر الأقيانوس ويعود بالدليل القطعي على كل تساؤلات المشككين؟!".

توقف الجميع، وساد السكون، والجميع ينظر إليَّ مشدوهًا وقد احمر وجه أبي، بينما طأطأ أخي وجهه ووضع فداء يده على رأسه وهو يهزها غير مصدق أنني قد فعلتها وأعتقد أيضًا أنه ندم في تلك اللحظة على طلبي للحضور. لم يجرؤ أحد على النطق ببنت شفة، وتوقف الزمن أو كاد، حتى أنني شعرت بأن دهرًا قد مضى على ذلك الصمت، وبدون مقدمات جعل الخليفة يقهقه بصوت عالٍ:

" وها أنت تَنْقَضُّ من جديد أيها الباز".

ثم نظر إلى أبي وهو يكمل:
" تعجبني شجاعة ابنك وصراحته، فأنا متأكد بأن الكثير ممن بهذه القاعة يسأل نفسه نفس السؤال رغم علمه المسبق بالإجابة، وخاصة من هم من بني جلدتكم".
نظر إليّ أبي بخيبة أمل واضحة وهو يقول:
" يا خليفة المؤمنين، إنه لا يزال شابًّا يافعًا ومتهورًا، لم يتعلم بعد فنون مسك اللسان ووزن الكلام، أؤكد لك بأنني سأقوم بعقابه بنفسي، هلم أيها الباز، واعتذر للخليفة عن مقاطعتك وصفاقتك".
رد عليه الخليفة وهو لا يزال مبتسمًا:
" لا عليك يا حكيمنا، فسؤاله هو سؤال باقي الرعية، ويستحق الإجابة، ولكن عليه أن يصبر حتى يسمع الإجابة مع باقي إخوته، فسوف أخطب اليوم في الرعية كما أشرت إلينا أيها الحكيم، الآن اتركوني جميعًا وليبق كاتبي وحكيمنا لأعد خطبتي".
" أحسنت صنعًا يا باز، ها أنت ذا تحرج أبانا من جديد" قالها أخي الأكبر الأسد الصبور وهو في طريقه إلى خارج القصر.
" أعلم أنها من السنة أن تغتسل قبيل صلاة الجمعة، ولكن أن يغتسل المرء وهو في كامل حلته الرسمية فهذه لم أجد لها مرجعًا أبدًا" ، التفت لأجد فداء يحاول جاهدًا كتم ضحكاته.
" مضحك جدًّا، أنا أحملك كامل المسؤولية على هذا. لقد نسيت أن تبلغ الحرس بالسماح لي بدخول القصر!"
توقف فداء عن الضحك وتغير لون وجهه:
" أعتذر عن ذلك؛ فقد كنت في عجالة من أمري".
" والنتيجة أنني أحرجت أبي، وجعلته أضحوكة المجلس، لن يغفر لي أبي هذه المرة، أنت مدين لي".
" أعتذر لك مجددًا، أعترف أنني المتسبب في هذا، أنا مدين لك فاطلب ما شئت، تعالَ إلى غرفتي لتجفف نفسك قبل الصلاة".
" حسنًا قبلت اعتذارك، وسأبقي دينك لحين حاجة، فهذه فرصة العمر أن يدين لي ابن الخليفة" ثم أتبعتها بعجالة: " لنرى من منا سيصل إلى غرفتك أولا" وانطلقت كالبرق، فغرفة فداء في الطرف الآخر من القصر على ارتفاع ثلاثة طوابق، هذا ديدننا منذ أن كنا فتية، وقد كان سباقنا هذا من الكوارث التي اعتادها العاملون بالقصر، فتارة نقفز من طابق لآخر لنسقط على أحدهم، وأخرى ننزلق على رخام قاعة ملساء من تحت يد أحدهم التي تحمل آنية طعام أو شراب، لقد سبقني فداء هذه المرة، لا بأس فلا زلت أنا المتصدر.

□□□□□□□□□□

دخلنا أنا وفداء الجامع من المدخل الأمامي بجوار المحراب حيث يدخل الإمام

عادة، وجلسنا في الصف الأول مع جمع من مشائخ القبائل، توجهت العيون نحونا بترقب، ثم ما لبثت أن عادت إلى مصاحفها حين لم يجدوا الخليفة معنا، رغم أنني رأيت الجموع في خارج الجامع، إلا أنني لم أكن أتوقع هذا العدد من المصلين بالداخل، فقد اكتظ الجامع بالمصلين؛ فلا يكاد يوجد موضع قدم، فلولا أن المنطقة التي جلسنا بها كانت محاطة بالحرس الذين منعوا عنها المصلين ليجد ضيوف الخليفة مكانًا لهم بالجامع لاضطررنا أنا وفداء للصلاة بأقاصي ساحات الجامع الخارجية. أخذ كل منا مصحفًا وجلسنا نقرأ، أنهيت سورة الكهف، وتبعتها بجزءين، لقد قارب وقت الظهيرة أن ينقضي ولم يظهر الخليفة بعد، شعرت بالمصلين وهم يتململون من الانتظار، ثم فُتح باب الإمام وارتفعت العيون مجددًا، ورأيت أبي يدخل، ثم تبعه الخليفة، وتقدم أبي ليجلس بين باقي مشائخ القبائل، صعد الخليفة إلى أعلى المنبر:

" السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته" ثم جلس.

وأذن المؤذن، مضت لحظات الأذان ثقيلة على الجميع، فالكل ينتظر خطبة الخليفة بفارغ الصبر، حتى المؤذن، فقد كان أذانه اليوم مختلفًا عن أذانه في أي وقت آخر، لم يكن يمد في الأذان كعادته، كانت العجالة في أدائه واضحة، ثم انتهى المؤذن، وساد السكون أرجاء الجامع، الجميع يترقب خطبة الخليفة، الجميع سوى الخليفة، فقد كان جالسًا يتمتم لنفسه، لا أعلم أكان يسبّح أم يراجع ما سيقوله، ولكن الوقت يمضي، والخليفة جالس لا يبرح مكانه، وأخيرًا وقف الخليفة:

" الحمد لله الذي بحمده تتم النعم، والصلاة والسلام على أشرف خلقه، محمد بن عبد الله خاتم أنبيائه ورسله، وأعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا. قال تعالى في كتابه العظيم: (وَٱعتَصِمُواْ بِحَبلِ ٱللَّهِ جَمِيعا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذكُرُواْ نِعمَتَ ٱللَّهِ عَلَيكُم إِذ كُنتُم أَعدَاء فَأَلَّفَ بَينَ قُلُوبِكُم فَأَصبَحتُم بِنِعمَتِهِۦٓ إِخوَٰنا وَكُنتُم عَلَىٰ شَفَا حُفرَة مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُم ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ) ، صدق الله العظيم. إخوة الإيمان معاشر المسلمين، فلينظر كل منكم إلى يمينه وشماله، أمامه وخلفه، لقد منّ الله علينا اليوم بأن جمعنا في هذا اليوم الفضيل على طاعته، جمعنا كإخوة متحابين متعاضدين لعبادته ودعائه، إن الجموع الغفيرة التي اجتمعت هنا اليوم دليل على محبتنا لبعضنا، وخوفنا من فتنة قد تفرق بيننا وبين إخواننا المسلمين، اليوم إخوتي المؤمنين سأذكركم بنعم الله علينا جميعًا، لا أمنُّ عليكم ولا تمنون علي، فالله وحده هو المنان الذي منّ علينا جميعًا بهذه الأخوة وبهذه المحبة وهذه الألفة التي بيننا. لقد جاءكم جدي علي بن سعد مهاجرًا بدينه من الأندلس، جاء ومن معه إلى أرضكم هذه جائعًا بعد أن تاهوا شهورًا في البحار، ونفد ما لديهم من طعام، وصلوا إلى أرضكم، فكان أول ما وجدوه شجرة اليقطين ليقتاتوا منها؛ فأنقذتهم كما أنقذت سيدنا يونس - عليه الصلاة والسلام - من قبل فاستبشروا بأرضكم هذه خيرًا، لقد أنعم الله عليهم

وعليكم بأن حطوا على هذه الأرض المباركة ليبنوا هذا الجامع منذ ما يقرب الثلاثة قرون، جاؤوكم فوجدوكم قبائل متناحرة متقاتلة، وما لبث أجدادكم أن علموا بوصولهم حتى انقضوا عليهم من كل صوب، ثلاثون عامًا من الحصار داخل أسوار هذه المدينة التي بناها أجدادي، ثلاثون عامًا في معارك مستمرة يدافع فيها فرسان الموريين عما تبقى من عصبة الإسلام، لقد كانوا أكثر تقدمًا في علوم القتال والسلاح من أهل هذه الأرض المباركة حينها، كان بوسعه أن يثخنوا فيهم القتل بحجة الدفاع عن أنفسهم وأهلهم ودينهم، ولكنهم لم يتوسعوا خطوة واحدة خارج أسوار هذه المدينة، بل قاموا بإرسال الرسل للتواصل مع مشائخ القبائل، رغم كل ما كانوا يعانون من حصار وخوف وحنين إلى الوطن، إلا أنهم لم ينسوا رسالتهم الأهم في هذه الحياة الدنيا؛ فقاموا بنشر دين الله ودعوة القبائل، فآمن من آمن، وأنكر من أنكر، ودخلت القبائل بعد ذلك في دين الله أفواجًا، وأقيمت العهود والمواثيق، وأصبحتم بنعمة الله إخوانًا، لم يكن الموريون يومًا يطمعون في الولاية، إلا أن القبائل حين رأت ما رأت من كريم تعاملهم، وما أقاموه من عدل وأخوة بين القبائل، قاموا بمبايعة جدي محمد الثاني عشر خليفة عليهم؛ ليجمع رايات القبائل تحت راية التوحيد، وقد كان أهم شروط تلك البيعة ألا يعود أحد باتجاه العالم القديم حتى لا يعلم بنا أعداء دين الله، في المقابل قام الموريون بنشر العلم والدين في كل أرجاء يقطينيا لنصنع معًا حضارة تضاهي الأندلس القديمة".

ثم جلس الخليفة لأخذ أنفاسه بين الخطبتين.

" إخوتي في الله، يعمل بعض المفسدين على هدم ما بناه أجدادنا خلال القرون الثلاثة الماضية، يريدون أن يوقدوا فتنة تكسر روابط الأخوة والمحبة ليس بين اليقطينيين والموريين فحسب، وإنما بين جميع الإخوة، فلا تنقادوا وراء هذه الفتن، واعتصموا بحبل الله جميعًا، يزعم من وراء هذه الفتنة أننا معشر الموريين قد كذبنا عليكم في دين الله، وأننا إنما استعملناه لنحكمكم، وأن قانون عزل العالم القديم إنما أقمناه لندلس عليكم" ثم نظر بنظرة وفاء تجاه والدي وأكمل:

" وأنا من منبري هذا أشهدكم، وأشهد الله أنني ومن معي، إنما نكنُّ لكم كل الحب والوفاء والأخوة، وأننا لا نريد لكم سوى الخير ومرضاة الله، لقد أنعم الله علينا جميعًا أكثر من قرنين من الأمان بعيدًا عن فتن الحروب وأخشى ما أخشاه عليكم أن تتسبب هذه الفتنة بإيقاد نار الحرب من جديد، أو أن يتسبب كسر قانون عزل العالم القديم بالإتيان بموقدها من هناك، ولهذا؛ فقد قررت وبعد مشاورة حكمائنا من شيوخ القبائل، وحفاظًا على روابط الأخوة التي تربى بيننا جميعًا أن أعفي أهل يقطينيا من بيعة قد مضى عليها ما يقارب القرنين والنصف؛ فنحن ضيوف على هذه الأرض، وقد أحسنتم ضيافتنا وأكرمتم وفادتنا، فلتبايعوا من شئتم، أقم الصلاة".

نزل الخليفة من المنبر، وقام المؤذن ليقيم الصلاة، اكتسى الجامع بروح حزينة، يُسمع صداها في صوت المؤذن المتحشرج الباكي.

ثم وقف الخليفة ليصلي بنا، فقرأ في ركعته الأولى:

(وَٱعتَصِمُواْ بِحَبلِ ٱللَّهِ جَمِيعا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذكُرُواْ نِعمَتَ ٱللَّهِ عَلَيكُم إِذ كُنتُم أَعدَاء فَأَلَّفَ بَينَ قُلُوبِكُم فَأَصبَحتُم بِنِعمَتِهِۦٓ إِخوَٰنا وَكُنتُم عَلَىٰ شَفَا حُفرَة مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُم ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ)

ثم قرأ في ركعته الثانية:

(وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلمُؤمِنِينَ ٱقتَتَلُواْ فَأَصلِحُواْ بَينَهُمَا فَإِن بَغَت إِحدَىٰهُمَا عَلَى ٱلأُخرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمرِ ٱللَّهِ فَإِن فَاءَت فَأَصلِحُواْ بَينَهُمَا بِٱلعَدلِ وَأَقسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلمُقسِطِينَ ، إِنَّمَا ٱلمُؤمِنُونَ إِخوَة فَأَصلِحُواْ بَينَ أَخَوَيكُم وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسخَر قَوم مِّن قَوم عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيرا مِّنهُم وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيرا مِّنهُنَّ وَلَا تَلمِزُوٓاْ أَنفُسَكُم وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلأَلقَٰبِ بِئسَ ٱلِٱسمُ ٱلفُسُوقُ بَعدَ ٱلإِيمَٰنِ وَمَن لَّم يَتُب فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجتَنِبُواْ كَثِيرا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعضَ ٱلظَّنِّ إِثم وَ لَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغتَب بَّعضُكُم بَعضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَن يَأكُلَ لَحمَ أَخِيهِ مَيتا فَكَرِهتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّاب رَّحِيم ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقنَٰكُم مِّن ذَكَر وَأُنثَىٰ وَجَعَلنَٰكُم شُعُوبا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكرَمَكُم عِندَ ٱللَّهِ أَتقَىٰكُم إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير ، قَالَتِ ٱلأَعرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّم تُؤمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسلَمنَا وَلَمَّا يَدخُلِ ٱلإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُم وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتكُم مِّن أَعمَٰلِكُم شَيئًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُور رَّحِيمٌ ، إِنَّمَا ٱلمُؤمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَم يَرتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَموَٰلِهِم وَأَنفُسِهِم فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ، قُل أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُم وَٱللَّهُ يَعلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلأَرضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيم ، يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَن أَسلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيكُم أَن هَدَىٰكُم لِلإِيمَٰنِ إِن كُنتُم صَٰدِقِينَ ، إِنَّ ٱللَّهَ يَعلَمُ غَيبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ وَٱللَّهُ بَصِيرُ بِمَا تَعمَلُونَ)

□□□□□□□□□□

ما أن سلم الخليفة من صلاته حتى ارتفعت الأصوات باسم الخليفة:

" نحن على العهد، نبايع الوضاء، نبايع الوضاء".

ومع هتافات الجموع، قام شيوخ القبائل لمبايعة الخليفة الوضاء وتجديد العهد، وبعد أن أنهى الشيوخ المبايعة، ووقفوا خلف الخليفة، تبين للجميع أن مشائخ خمسة من القبائل لا يزالون يقفون؛ حيث كانوا عند انتهاء الصلاة، ولم يبايعوا الخليفة، وهم: جبل بن صراع شيخ قبيلة نافوجه، والثور الصامد بن الثعلب الحليم، شيخ قبيلة أباتشة، والآسد بن ذئاب، شيخ قبيلة كمانش، وحكم بن الرعد، شيخ قبيلة آجيب، وحقل بن صبر السماء، شيخ قبيلة شيون.

تقدم جبل من الخليفة، وساد السكون أرجاء المسجد بعد أن حبس الجميع أنفاسهم ترقبًا لما سيحدث، ظهر التوتر على جنود الخليفة، واعتصرت قبضة كل منهم مقبض سيفه في تحفز واضح، أشار الخليفة لجنوده لتهدأتهم، نظر جبل طويلا في عيني الخليفة، ثم قال:

" أما أنا فلن أقبل بحكم المور علينا بعد اليوم".

" ومن الذي سيحكم يقطينيا؟ أنت؟" قال بحر بن رياح شيخ قبيلة شاون بحنق.

تجاهله جبل وأدار ظهره للخليفة ناظرًا إلى جموع المصلين:

" يا معشر اليقطينيين، أخاطبكم اليوم عني وعن قبيلتي نافوجة، وعن قبائل أباتشة، وكمانش، وآجيب، وشيون، فنحن لن نبايع خليفة المور، ولن نأتمر بأمره بعد اليوم؛ فقد طال تحكمهم بنا، وتنفعهم من خيرات أرضنا، ومع ذلك، واحترامًا لعهد أجدادنا، وللأشهر الحرم، سنمهل المور حتى صفر ليخرجوا من يقطينيا، لقد انتهى زمن الخرافة، وكلنا يعلم أنه لا وجود لأي أرض عبر هذا الأقيانوس سوى في خيالات المور. من أراد منكم أن ينضم إلينا فسنقيم خيامنا غرب جبال أباتشة حتى انتهاء المهلة، وبعدها سنزحف على قرطبة الجديدة لنقضي على كل موري في يقطينيا وكل من يتبعهم أو يُناصرهم أو يدين بدينهم".

وتحرك جبل بحزم خارجًا من الجامع، ومن خلفه مشائخ القبائل الأربعة، وخلفهم عدد لا بأس به من المصلين، ومع خروجهم بدأت الأصوات تتعالى، ثم ازدادت حدة، وتحول الكلام إلى صراع اجتاح الجامع بأكمله، التف الحراس حول الخليفة لحمايته وهم يقودونه خارج الجامع إلى قصر الخلافة.

وقفت مذهولا وأنا أشاهد إخوتي يتقاتلون على مد البصر، لم أصدق أنه بعد أكثر من قرنين من الزمن منذ معركة قرطبة الجديدة والتي وصلت إلى داخل هذا المسجد أن يعود القتال إليه. لابد أن أجد حلا، يجب أن توقف هذه الفتنة.

(3)

أكادير

منتصف شهر جماد المتقدم عام *291* س . غ .

مضى على هروبي من محبسي ست عشرة ليلة وقد ظهر البدر مكتملا بالأمس، لا زلت لا أملك التفرقة بين أيام الأسبوع. أمضيت أيامي هذه في البحث على الشاطئ، علني أجد بعض مقتنياتي قد قذفتها أمواج الأقيانوس كما قذفتني، لم تكن بالمهمة السهلة؛ فعسس ذلك المارد لا تزال تبحث عني وقد اضطررت للاختباء تحت رمال هذه الصحراء أكثر من مرة.

خلال هذه الليالي، وجدت بضعة صناديق من السفينة التي أقلتني، وجدت فيها بعضًا من المؤن، وقربة ماء، كما وجدت حرملتي التي أهدانيها شيخي صقر الأكابر، إلا أنها قد مُزقت بعض الشيء، وتحتاج إلى إصلاح قبل أن تعود لأدائها المعتاد، إضافة إلى ذلك وجدت بعضًا من أسلحتي التي سأحتاجها وبكل تأكيد في مهمتي هنا، بالإضافة إلى عدد لا بأس به من الدنانير والدراهم.

وجدت كهفًا صغيرًا جدًّا على سفح أحد الجبال المواجهة للأقيانوس، بالكاد تكفي مساحته الداخلية لي بالاستلقاء، تخفيه عدة جلاميد، وبه نسمة هواء تجعله المكان المناسب لأحتمي به في النهار من حر الشمس، ومن أعين العسس، كما أنني أستطيع مراقبة الأقيانوس من هنا، علني ألمح أي بقايا من سفينتي. سأنتظر هنا حتى المساء، ثم ألتحف بظلمة الليل، وأسترشد بضوء القمر لأبدأ رحلتي.

بدأت الشمس بالغروب، فحملت صرة كبيرة امتلأت بحاجياتي التي جمعتها في الأيام القليلة الماضية، وهممت بالخروج من كهفي، وقبل أن أظهر من خلال الجلاميد، لمحت فرسًا أسودَ بسواد الليل يجري في الأفق على الخط الفاصل بين الأقيانوس والبر، عليه فارس لا يقل عنه سوادًا، تطايرت من خلفه حرملة شديدة السواد. لابد وأنه مارد آخر يبحث عني. قررت أن أبقى خلف هذا الجلمود لأراقب المارد، ولاحظت أنه يجوب بنظره في الأقيانوس كأنه يبحث عن شيء ما. إنه لا يبحث عني، ولكن ما الذي يبحث عنه يا ترى؟! توقف الفرس فجأة، ووضع الفارس كفه فوق عينيه متفحصًا الأفق، رفعت نظري إلى حيث يبحث؛ فوجدت كتلة خشبية تعلق بها جسم إنسان، لابد أنه أحد ركاب السفينة الآخرين. تحرك الفرس إلى داخل الأقيانوس متجهًا نحو ذلك الناجي، بينما يحثه فارسه على الإسراع. هممت للحظة أن ألحق به لأساعد ذلك اليقطيني قبل أن يقع في الأسر، إلا أنني توقفت، هناك شيء مريب فيما يحدث هنا، كيف عرف هذا المارد بموقع هذا الناجي؟ ولماذا لم يأتِ معه عدد كبير من الحرس كما حدث مع عنترة حين وجدني؟ قررت الاقتراب أكثر دون أن يلحظني الفارس، سأكون قريبًا بما يكفي لأحاول فهم ما يحدث، ولمساعدة اليقطيني إن اضطررت لذلك. وصل الفارس إلى الكتلة الخشبية، فربط بها حبلا وعاد أدراجه نحو الشاطئ وهي على أثره. ارتجل من على فرسه، وخطا إلى داخل المياه ليحمل جسد الناجي على كتفه بكل سهولة ثم يلقيه على رمال الشاطئ. نزل على ركبتيه، ووضع

أذنه على صدره، وتحسس فمه بيده، ولم يكد يفعل حتى سعل الناجي؛ فانتفض المارد من المفاجأة، ثم قهقه بصوت تردد صداه بين الجبال، وضرب بكفه على كتف الناجي قائلا:

" أنت بالفعل أكثرنا عنادًا مع ملك الموت يا حِمر".

هيئ لي أن الجسد الملقى على الأرض قد رفع رأسه بعض الشيء وتمتم بشيء لم أسمعه جعل المارد يقهقه من جديد، ثم حمل المارد من أسما حِمر، ورفعه على ظهر فرسه، ثم أمسك بزمام فرسه ليقوده عائدًا من حيث أتى باتجاه الجنوب. حاولت الاقتراب أكثر دون أن يلمحني المارد محاولا تبين ملامح ذلك الناجي، شعره طويل وأبيض اللون، لا أكاد أرى وجهه من هذه المسافة، ولكنه وبكل تأكيد لم يكن من طاقم السفينة. فمن هو يا ترى؟ وكيف لهذا المارد أن يعرفه؟ لابد أن أتبعهما لأتبين هذه العلاقة، لابد أن أحافظ على سر يقطينيا.

□□□□□□□□□□

وصلنا إلى مدينة عملاقة عند نهاية الجبال المحاذية للأقيانوس، كانت أسوارها الحجرية شامخة بارتفاع لا يقل عن مائة ذراع، ويصل في بعض المواقع القريبة من الجبل إلى المائتي ذراع. كانت الشمس قد بدأت بالظهور من خلف المدينة، توجه المارد باتجاه الجبل، ومن خلفه فرسه. رغم أن الجبل كان وعرًا جدًّا، إلا أن الفرس كان يتحرك بمرونة وسهولة، يبدو أنهم يمشون عبر ممر ممهد مسبقًا لا يكاد يظهر لمن لا يعرف بوجوده، توقف المارد أمام حجر عظيم عند نقطة التقاء الجبل بجدران المدينة، لم يعد هناك مجال للتقدم، وبدأ يتفحص المكان ليتأكد من عدم وجود من يراه، فاختبأت خلف حافة الجبل، أرهفت السمع محاولا استشفاف ما يقوم به هنا، وكذلك للتأكد من أنه لن يراني ولا يتحرك باتجاهي. سمعت صوت سقوط وتحرك بعض الأحجار حيث وقف المارد، لابد وأنه يحاول تسلق الجدران، ولكن لماذا؟ وأين سيذهب بالفرس وراكبه؟ انتظرت بضع لحظات، ثم توقفت أصوات الحركة تمامًا، أخرجت رأسي من مخبئي لأرى ما يحدث، لم أجد أثرًا للمارد ولا فرسه، وكان الحجر العملاق معلقًا على ارتفاع بضعة أذرع ويتحرك ببطء ليخفي ممرًّا ضيقًا، تحركت بسرعة لألج الممر قبل أن يخفيه الحجر مجددًا، دفعت نفسي دفعًا في المساحة الضيقة المتبقية لألج الممر ويُغلق الحجر من خلفي مباشرة ويسود الظلام إلا من بصيص في نهايته. تبعت الممر إلى نهايته؛ لأجد نفسي في أحد أزقة المدينة الصاخبة، تلفت يمنة ويسرة لألمح فرس المارد في نهاية الزقاق. شققت طريقي وسط الزحام أتابع الفرس من زقاق إلى آخر حتى وصل إلى بيت قديم وفتح بوابة إسطبله وأدخل الفرس، ثم تلفت في الزقاق قبل أن يوصد البوابة من خلفه.

□□□□□□□□□□

لابد أن أبقى وأراقب هذا المنزل؛ لأجد طريقة أنقذ بها اليقطيني من المارد،

ولكن يجب أن أتعرف على المنطقة المحيطة أولا، وأحفظ مداخلها ومخارجها. بدأت بالتجول في الأزقة المجاورة حتى وصلت إلى ساحة واسعة يبدو أنها أحد أسواق هذه المدينة، سأبحث عن بائع جلود لأصلح حرملتي. تجولت في السوق أستمع إلى حديث الناس؛ فعلمت أن هذه المدينة اسمها أكادير، وهي مدينة عسكرية في المقام الأول، إذ يتمركز بمينائها أسطول حربي فيه الآلاف من الجنود والبحارة. تعجبت من أن الغالبية هنا تتحدث العربية، إلا أن لهجاتهم تختلف عما تعودته في يقطينيا، والأعجب أنهم يستخدمون الدينار والدرهم في تعاملاتهم كذلك. وجدت تاجر الجلود فقلبت في بضاعته حتى وجدت ما أحتاجه.

" بَكم هذه القطعة؟"

" أحد عشر درهمًا".

أخرجت الدراهم وأعطيتها للتاجر، وهممت بأخذ قطعة الجلد. فوضع التاجر يده عليها واستوقفني:

" مهلا، لم أرَ مثل هذا الدرهم من قبل، من أي البلاد أنت؟ فلسانك غريب علي"

" أنا عابر سبيل، وهذه الدراهم التي أملك، اقبلها إن شئت أو أعدها لي، وسأجد غيرك يقبلها".

نظر التاجر طويلا في عيني، ثم تفحص الدراهم مرة أخرى، ثم أشار إليَّ بالانصراف؛ فأخذت الجلد وانصرفت لأتجول في باقي السوق. لاحظت أن التاجر كان يراقبني، وحين اعتقد أنني لم أعد ألاحظه، أغلق محله على عجالة، ثم تحرك صوب مجموعة من الجنود الذين يطوفون بالسوق، وتحدث معهم وهو يرمقني بنظرات مرتابة، ثم أخرج شيئًا من جيبه له بريق، أظنه أحد الدراهم التي أعطيتها إياه، وأشار تجاهي. لاحظت توتر الجنود، ثم بدأوا يتحركون نحوي وهم يدفعون المارة عن طريقهم بغلظة، تحركت ببطء مبتعدًا عنهم باتجاه أحد الأزقة متظاهرًا بأنني لم ألحظ تحركهم نحوي. سمعت أصواتهم ومدافعتهم للمتسوقين بعد أن اختفيت عن أنظارهم في ذلك الزقاق، وحين وصلوا لم يعد لي أثر. سمعت صوت قائدهم وهو يصرخ غضبًا:

" أين ذهب؟!"

تلفت الجنود حولهم بحثًا عني، ثم أمرهم قائدهم بالانتشار للبحث عني. كنت أراقبهم من سقف إحدى البنايات؛ حيث تسلقت واختفيت قبل وصولهم بلحظة. بقيت مكاني لبرهة من الزمن حتى تأكدت من ابتعادهم، الآن يجب أن أعود إلى حيث أخذ ذلك المارد الشيخ اليقطيني، يجب أن أساعده.

(4)

تَوْتَمي

الأحد التاسع والعشرون من ذي الحجة عام *290* س . غ .

صليت الفجر في جامع قرطبة الجديدة، مع والدي وأخي الأكبر فلقد جاءه رسول البارحة بعد صلاة العشاء، وأخبره بأن الخليفة يريد اللقاء بنا بعد صلاة الفجر مباشرة. لقد كان الخليفة يؤمنا كعادته، فلا نعلم يومًا قد فوت فيه إمامة الصلاة في جامع قرطبة إلا في حالات مرضه، أو زيارته لأحد الأقاليم البعيدة بالرغم من إصرار قائد الحرس عليه بأن يلزم القصر تخوفًا منه بأن يحاول أحدهم اغتياله، وكان رد الخليفة له دومًا: " ما علمت عن جبل خيانة عهد". بعد الصلاة أشار الخليفة إلى أبي بأن نتبعه متوجهين إلى القصر، وقد كان فداء برفقته. وصلنا إلى بلاط الخليفة، فاستوقفنا فداء، وأشار إلى الحرس بإغلاق الأبواب من خلف والدينا، بينما انتظرنا نحن خارج البلاط. مع الوقت بدأ مشائخ بعض القبائل الموالية للخليفة بالوصول مع مستشاريهم، إلا أن فداء كان يصر عليهم بالانتظار إلى أن يقوم الخليفة بطلبهم. بعد فترة ليست بالقصيرة فُتح باب البلاط، وظهر أبي من خلفه، ثم أشار أبي بالدخول، دخل مشائخ القبائل ومستشاروهم إلى البلاط، وتبعهم أخي بينما استوقفني أبي وهو يشير إلى فداء: " ليس بعد" ، وأغلق الباب من خلفه.

ظهر القلق على وجه فداء، وبدأ بالمشي ذهابًا وإيابًا أمام باب البلاط، أما أنا فقد جلست على إحدى الأرائك المنتشرة أمام البلاط، وأرحت رأسي للخلف. لم أكد أغفو حتى دفعني فداء من كتفي:

" كيف تغفو في وقت كهذا؟".

" وقت كماذا بالضبط؟".

" ألا تعلم أن المهلة التي أعطانا إياها جبل ستنتهي بعد بضعة أيام، وحينها ستبدأ أول حرب بين القبائل اليقطينية منذ قرنين ونصف؟ ألا تشعر ولو بقليل من التوتر؟".

" ولماذا أشعر بالتوتر وأنا لا أملك في هذا الأمر شيئًا؟ ثم أين ثقتك بقدرات والدك وقيادته؟ وأين ثقتي بحكمة أبي؟ صدقني لا يوجد ما يدعو للقلق أو التوتر، فهم مجتمعون الآن مع مشائخ القبائل وسيخرجون علينا في أي لحظة بخطة مكرية محكمة لإنهاء هذه الفتنة".

" خطة مكرية محكمة لإنهاء هذه الفتنة! بهذه البساطة؟ يالك من حالم يا باز".

هززت رأسي باستهزاء، وعدت لغفوتي. ولكن حظي التعيس لم يمهلني، فبمجرد أن غفوت ثانية، تردد صدى باب البلاط وهو يفتح ليقوم فداء بركلي في قدمي لأقوم. كان بحر بن رياح، شيخ قبيلة شاون واقفًا بالباب ينظر إلينا، بينما تصلب فداء في مكانه وأنا أعدل من جلستي على الأريكة، لم يَبْدُ عليه الرضا وهو يبدل نظره بيني وبين فداء إلى أن قال: " الخليفة يريد التحدث إليكما".

دخلت من خلف فداء، وسمعت الباب يوصد من خلفنا، كنت متعجبًا من طلب الخليفة التحدث إلي، فلا أذكر أن طلبني الخليفة أو حتى تحدث معي غير

السلام العابر حين يلتقي بي وأنا مع فداء أو مع والدي، ولكن أن يوجه الحديث لي برغبة منه فهذه سابقة. ترى ماذا يريد مني الخليفة؟ هل لا يزال غاضبًا عليّ منذ دخلت عليه بلاطه وأنا أقطر ماءً؟ ولكن لماذا اليوم بالذات بعد مضي كل هذا الوقت؟ جالت عيني بين وجوه الحاضرين؛ فتقاطعت نظراتي مع نظرات والدي، يبدو على وجهه القلق، بدأت الحيرة تكتسي وجهي وأنا أحاول أن أستنطق تعابير أبي، علني أفهم ما يجري، ولكنني لم أحصل على مبتغاي. كدت أن أصطدم بفداء وهو يتوقف في منتصف البلاط، فلاحظت حينها بأن الخليفة قد وجه بصره تجاهنا:

" يا باز، على ما أذكر فإن الكواسر هي توتمك، ومعلمك هو صقر الأكابر، أليس كذلك؟".

زادت حيرتي وأنا أجيب: " نعم سيدي، هذا صحيح".

" وما هو تقييم معلمك في تمكنك من توْتمك؟".

" يقول: إن قدراتي تجاوزت الريش الثلاث السوداء، وأنني أكاد أضيف عليها ريشة بيضاء، كما أن قدرتي على التواصل معهم تجاوزت ما يعتقد الغالبية أنه ممكن" ، لم أستطع السيطرة على حيرتي أكثر من ذلك: " عذرًا سيدي، ولكنني لا أذكر اهتمامك بأمور قدراتي وتعليمي".

ضحك الخليفة بصوت عالٍ: " أنا أهتم بكل رعيتي، ولكنني أيضًا أخص أصدقاء أبنائي بمتابعة واهتمام خاص" ثم نظر إلى أبي: " أعلم أنك لا تزال متحفظًا على ما احتاج ابنك القيام به، ولكنني - كما تعلم- لا أجازف بابنك فقط، وإنما أحتاج أن أرسل ابني كذلك، وهذا ما يضيف إلى تفضيل ابنك على باقي الكواسر" وأعاد نظره إلى وجهي ليرى تعابير الحيرة تزداد عليه: " يا باز، كما تعلم فإن جموعًا قد خيمت عند جبال أباتشة، وأخشى أننا سنضطر إلى مواجهة إخوان لنا بعد بضعة أيام، ولا أرغب في مواجهتهم دون معرفة أعدادهم وعتادهم، ولذلك فإنني أحتاج إلى من يستطيع استطلاع التجمع والعودة بتلك المعلومات إلى جيشنا بأسرع وقت ممكن، وكما تعلم فإن أفضل العسس هم تواتم الكواسر، وتواتم الغزال، وبما أن توتم فداء هو الغزال؛ فقد أصررت أن يكون فداء أحد العسس، وأحتاج كاسرًا ليكمل فريقه، كما أنني أحتاج أن أظهر للجميع أن الموريين واليقطينيين يعملون سوية، وأن قادتهم يتقدمون الصفوف".

توقف الخليفة عن الحديث، وأشار لقائد الجيش المثنى الذي قادنا نحو منضدة في طرف البلاط، نشرت عليها خارطة يقطينيا وأشار إلى جبل أباتشة: " تبعد جبال أباتشة مسيرة عشرين يومًا من هنا، سيقيم الجيش خيامه عند العيون الحمئة قرب غابات أوشاتا هنا في منتصف الطريق تقريبًا، ولا أحتاج أن أؤكد لكما مدى أهمية المعلومات التي ستجمعونها، إن كنتما كما أعلم من قدراتكما، فأنتما أفضل فرصنا للحصول على المعلومات عندما نخيم هناك، مهمتكما صعبة؛ فيجب أن تصلنا هذه المعلومات بعد خمس وعشرين يومًا ودون أن يتمكن منكما أتباع جبل".

" تريدنا أن نقطع مسيرة ما يقرب من الثلاثين يومًا، ومراقبة جيش جبل، وجمع كل المعلومات العسكرية عنه، كل ذلك في أقل من خمس وعشرين يومًا؟!" قال فداء بدهشة.

قال الخليفة: " أنا أثق بكما، لا أعلم بغزال قادر على التسلق والمبارزة مثلك يا فداء، ولا أعلم كاسرًا يستطيع الدخول إلى بلاطي كما فعل الباز بالرغم من تشديد الحراسة في ذلك اليوم، أحتاج منكما أن تستخدما نفس هذه الخفة والسرعة لرصد تحركات تلك الجموع والعودة سالمين، ستتحركان حالا، فخيلاكما ومعداتكما جاهزة".

ساد الصمت أرجاء البلاط، وتلفت حولي فرأيت وجه أبي وقد اكتسته ملامح الفخر، وقد أدمعت عيناه. تحركت نحوه، وقبلت رأسه وقلت له:

" أعدك أن أشرفك يا أبتِ"

" حفظك الله يا بني، وأعادك لنا سالمًا".

هممت بالتحرك نحو بوابة البلاط، ففوجئت بأبي يجرني من ذراعي ليضمني إلى صدره، ثم أبعدني عنه، ونظر في عيني نظرة حانية قبل أن يشير إليَّ بالذهاب.

□□□□□□□□□□

وصلنا بالكاد إلى حدود غابات الأمير ابن عبيد الله مع اختفاء آخر خيط من ضوء الشمس، فترجلنا من على فرسينا لنجهز أنفسنا لقضاء هذه الليلة المظلمة هنا بعد عناء هذا اليوم الشاق.

" سنبيت الليلة هنا، وفي الغد نبحث عن شاهين وحراك، آمل أن يوافقا على الانضمام لمهمتنا، وإلا فسنضطر للبحث عن غيرهما، وليس لدينا الوقت للمرور بغابات جبال الدخان لأجد هاكوم أو لتجد عَوْقَب". قالها فداء وقد بدا عليه الإنهاك من جهد هذا اليوم.

" أنا أعرف شاهين جيدًا، وأجزم أنه لن يرفض لي طلبًا أبدًا، أما حراك، فقد حذرتك أكثر من مرة بأنه مزاجي".

قهقه فداء وهو يقول: " ألسنا جميعًا كذلك؟"

أوقدت مصباحي لأتمكن من تفحص المنطقة من حولي، بينما قام فداء بفرش لحافينا، بعد أن أخلى المكان من الأحجار، بينما جمعت أنا بعض الأخشاب لأوقد نارًا تدفئنا.

" لن نوقد نارًا خلال هذه المهمة". قالها فداء بصرامة.

" ولكننا نحتاجها للتدفئة".

" فلتلتحف بعدة ألحفة إذا لزم الأمر، ولكنني لن أفضح موقعنا ولا تحركاتنا، فهذه المهمة غاية في السرية والأهمية".

" أعانني الله على مشقة السير معك". قلتها بضيق واضح، إلا أن فداء تجاهل نبرتي.

" هل تعتقد أننا بالفعل سنجد جبل قد جمع جيشًا ليحارب الخليفة؟".

" جميعنا يعلم بأن جبل قد حلم دومًا بالسلطة والقوة، ولكننا لم نتخيل أبدًا أنه سيتجرأ على تحدي الخليفة علنًا. ما يحيرني هو كيف أقنع باقي اليقطينيين باتباعه".

" يا باز، إن الإيمان بالغيب ليس بالأمر الهين، فنحن بطبيعتنا كبشر نبحث دومًا عن الأدلة والمنطق الذي يبرر لنا ما نقوم به، وقد استغل جبل هذا الأمر ليشككهم في صحة ما نقله لكم الموريون، وحين تغيب الثقة يصبح التلاعب بالجماهير سهلا، ولا أخفيك سرًّا، فأنا أحمّل والدي وباقي الموريين جزءًا من هذا الذنب، فسؤالك يوم جمعنا والدي في بلاطه كان منطقيًّا ومهمًّا، وتهرب أبي من الإجابة عنه بإجابة منطقية، وإصراره هو وباقي مستشاريه على عدم السماح لأحد بعبور الأقيانوس، والإتيان بالأدلة على صحة كل ما نُقل لنا عن تاريخ الإسلام، وعن الأندلس سيكون سبب هلاكنا جميعًا، فأخشى ما أخشاه أن تكون ذنوب أجدادنا قد لحقت بنا إلى هنا ويتكرر ما حدث بالأندلس من إبادة لكل من يخالف جبل".

كنت أنظر إليه فاغرًا فاهي متعجبًا من قوله، فقد ظننت أن جميع الموريين مجمعون على إبقاء قانون العزل، وأنه بالنسبة لهم من المسلمات التي لا نقاش فيها، أما أن ينطق أحدهم باعتراضه عليه، وخاصة أن يكون ذلك من ابن الخليفة نفسه، فهذا ما لم أظن للحظة أن يحدث أبدًا.

" تبدو متعجبًا مما أقول، أليس هذا ما تعتقده أنت؟ فلم العجب؟!"

" ولكنك موري، ولست أي موري، بل أنت ابن الخليفة الأوحد، إليك ستؤول الخلافة بعد عمر مديد لوالدك بإذن الله، فكيف تقول ذلك؟".

" وما دخل ذلك في إعمال عقلي؟ أم أنك تقول بأن الموريين لا يملكون عقولا يتفكرون بها، وبالأخص أهل الخلافة؟".

بدأت أتصبب عرقًا؛ فرددت متوترًا: " لا. معاذ الله، ما هذا ما قصدت، إنما أقصد ...."

" لا عليك يا باز، فأنا أعلم تمامًا ما تقصد، ولكن أي خليفة أكون لو لم أعمل عقلي؟! نعم قد كانت هناك حاجة في ذلك الزمن البعيد لفرض قانون العزل، فشوكة المسلمين حينها كانت ضعيفة، وعلاقاتنا باليقطينيين أضعف، فقد كنا مهاجرين فارين بديننا وأموالنا وأعراضنا وعلومنا، وقد وصلنا إلى أرض غريبة ليس لنا فيها منزل ولا صديق، أما اليوم فنحن في قوة من أمرنا بين إخوة لنا يحبوننا كما نحبهم. فلم الخوف، ولم التمسك بحكم قد مضى عليه ثلاثة قرون إلا قليل، وقد تغير الزمان والمكان، وذهبت الحكمة التي صدر ذلك الحكم من أجلها؟".

" فلِمَ لَمْ تقل شيئًا؟ لِمَ لَمْ تحاول مع والدك أن يرسل حملة لتعبر الأقيانوس وتعود لنا بالدليل؟"

" لا أجرؤ على مخالفة الخليفة في العلن أمام الجميع، ولكنني قد جادلته أكثر من مرة بهذا الخصوص على انفراد منذ أن بدأت هذه الفتنة، إلا أنه رفض

الاستماع إلي، بل كان يقول بأن هذا هو تأثيرك أنت علي، وأنني لو تفكرت في الأمر بعيدًا عن صداقتي لك لما وصلت لهذه القناعة".

" صداقتك لي؟ ولكننا لم نتحدث عن هذا من قبل، فقد حرصت على ألا أدخل معك في هذا الجدال حفاظًا على صداقتنا، لحظة، إذا كان والدك معترضًا على هذه الصداقة، وخصوصًا تأثيرها على منطقك، فلِمَ أرسلني معك في مهمة تستغرق خمسًا وعشرين يومًا لأقوم فيها بالتأثير علَيك أكثر؟".

" أعتقد أنه يظن بأن احتكاكي بك في مهمة كهذه سيجعلني أتفهم أكثر سبب محافظته على قانون العزل، ولكني في نفس الوقت أعتقد أن الحقيقة أن السبب الحقيقي من محافظته على قانون العزل هو خوفه من تبعات رحلة الاستكشاف الأولى".

" ماذا تقصد؟"

" أعتقد أن الموريين قد فقدوا إيمانهم بما يقولون قبل أن يفقد اليقطينيون إيمانهم به؛ فأصبحوا يخشون تلك الرحلة؛ لأنها هي الاختبار الحقيقي لما يؤمنون به، فلو أن الرحلة عادت بغير ما كنا نقوله فهي النهاية لكل ما بنينا هنا، وهي النهاية للأخوة التي تجمعنا".

ساد الصمت، ووضعت رأسي على الأرض وأنا أتأمل في النجوم التي تراصت في السماء بوضوح، أكاد أشعر أني أستطيع قطفها من أماكنها، ثم كسرت الصمت:

" إذا كنتم قد فقدتم إيمانكم بما نقلتموه لنا، فأنا لا أزال أؤمن بكل ما جئتم به" ولم أجد ردًّا من فداء، لابد وأنه قد نام من التعب.

(5)

غريب

أحد أيام الجمعة من شهر جماد المتقدم عام 291 س . غ .

لقد أمضيت الأيام الأربعة الماضية في أكادير، أراقب منزل المارد؛ حيث يحتجز الشيخ اليقطيني، تعرفت فيها على هذه المدينة الهائلة بعد أن استأجرت غرفة لدى الجار الخلفي للمارد. يبدو أن هذه المدينة من أهم المدن في هذا القطاع، يتوافد عليها البشر من كل الأقطار للتجارة، أو لطلب الرزق مما أفاء الله على هذه المدينة من خيرات، في غربيّها وعلى مد ثلث واجهة المدينة البحري يقع ميناؤها الذي ينبض بالحياة والحركة صباح مساء، تختلط فيه السفن الحربية والتجارية التي تعتمد المدينة كثيرًا على ما ينفقه ركابها فيها سواء لشراء البضائع، أو التمتع بطيبات مأكلها، أو حتى المبيت في نزلها المختلفة، إضافة إلى قوارب الصيادين الذين يمدون هذه المدينة بكميات هائلة من الأسماك والحيتان التي تراصت على أطراف الميناء لبيعها على المارة. لم أرَ قبل ميناءً بهذا الحجم، ولا هذا العدد من السفن في موقع واحد؛ فقد بدت السفن الممتدة على مد البصر داخل أسوار المدينة كالجراد. توسطتهم اليوم سفينة لم أرَ لها مثيلا من قبل، ساريتها تكاد تلامس السحاب، تراصت على جانبيها مئات المدافع، سمعت عمال الميناء يتهامسون باسمها العنقاء، يقولون بأن ربانها هو أمير البحر، وأعظم قادة الأسطول العثماني أورخان باشا ريس، وأنه هنا اليوم للاحتفال بذكرى فتح روميّا (أعتقد بأني سمعت بهذه المدينة، ولكنني لا أذكر أين). تمتد أسوار المدينة الشاهقة عدة آلاف من الأقدام داخل الأقيانوس، تنتهي ببرج على كل من جانبيها، في كل برج منصتان، الأولى على نفس ارتفاع سور المدينة، والأخرى تعلوها بخمسين ذراعًا، تبرز منهما مدفعيات عملاقة أراها بوضوح من كل هذه المسافة. تمتد عدة سلاسل حديدية بين البرجين لتكون سدًّا منيعًا ضد دخول أي سفن إلى حدود المدينة البحرية. أما وسط المدينة، فتجدون حدائق واسعة امتلأت بالأشجار المثمرة والزهور العطرة؛ حيث يلعب الأطفال ويتنزه الأحبة، تراصت حولها أعمدة علق عليها فوانيس تشتعل بعد غروب الشمس لبضع ساعات؛ لتعطي المارة والمتنزهين الفرصة للاسترخاء فيها بعد مشقة اليوم دون خوف من الظلام، ومن حولها تتداخل المنازل والأبنية التي تتشعب بينها الأزقة، والغريب كذلك أن هذه المدينة يقطنها، ويعبر فيها الكثير من المردة أصحاب البشرات الداكنة، يبدو أن هذه المدينة هي بوابة بين عالمي الجن والإنس، وأن الجميع هنا قد اعتاد على تواجدهم، فلم ألحظ تخوف أحد منهم أو من تواجدهم، ولكن أكثر ما تعجبت منه هو انتشار المساجد في كل زاوية من زوايا المدينة، مساجد وجوامع بأحجام متفاوتة، وسمات عمرانية متباينة، مناراتها تعلو من عليها أصوات الأذان لتمتزج أصوات المؤذنين في صوت واحد يتردد صداه بجميع أرجاء المدينة، كيف يعقل هذا؟ فهذا يناقض كل ما تعلمته منذ نعومة أظافري، لقد تعلمت أن الإسلام قد أبيد في العالم القديم عند سقوط غرناطة، وأن الموريين هم آخر من تبقى من المسلمين، وأنهم قد فروا

بدينهم إلى يقطينيا. هل نجا آخرون وهربوا إلى هذه البلاد وتمكنوا من إعادة بناء الإسلام هنا وعلى هذه المسافة القريبة من أعدائهم؟! أعتقد أن هذا هو أقرب تفسير لوجود هذه المدينة بحصونها وأسوارها، وميناءها الحربي، إضافة إلى ملبس أهلها الذي يشبه كثيرًا لبس الموريين التقليدي؛ ما جعل ملبس اليقطيني والذي امتزج فيه القماش مع الجلد غريبًا وملفتًا بالرغم من أن كثرة عابري السبيل جعلت أهل هذه المدينة يعتادون الغرباء، ولا يلقون لهم بالا؛ ما اضطرني لشراء لباسهم القماشي من أحد الباعة لأقلل من لفت الانتباه لي، كما اضطررت لاقتحام مصهر في أحد أطراف المدينة ليلا لأتمكن من طمس نقوش يقطينيا عن دراهمي ودنانيري؛ لتكون أكثر تقبلا لدى الباعة. حاولت تفادي الاحتكاك بالناس هنا قدر المستطاع حتى لا أثير انتباه أحد، وبالأخص الجنود الذين أعلم أنهم يبحثون عني، وكان هذا أهم سبب في أنني لم أصلِّ في أي من مساجدهم طوال تلك الأيام؛ خشية أن يتنبه لي أحدهم.

بعد مرور أربعة أيام من دخولي إلى أكادير، خرج المارد من منزله، خرج بعد أن أذنت المساجد للصلاة، ولكن أذانها هذا كان في غير وقته المعتاد، فقد كان قبيل وقت صلاة الظهر ببرهة لا بأس بها من الزمن، لابد وأننا في يوم الجمعة، وهذا هو الأذان الأول، تابعت صاحبنا إلى أن وصل إلى أحد الجوامع، فخلع نعليه ودخل الجامع، فتبعته إلا أنني فقدته بين الجموع. اضطررت للجلوس بين المصلين؛ فخروجي الآن سيثير الريبة ولا شك، كنت أجوب بنظري بين المصلين، علني أجد المارد، إلا أن كثرة المصلين وبالأخص المردة منهم قد جعل تلك المهمة أشبه بالمستحيل. لا أعلم كم مضى من الزمن قبل أن يصعد الإمام المنبر ليلقي علينا تحية الإسلام، ويتبعه المؤذن بالأذان للصلاة. لم أكن منصتًا للخطبة للأسف، إذ إنني كنت منشغلا بالبحث عن ضالتي، إضافة إلى تخوفي من أن يتنبه أحدهم لي. كل ما أذكره من تلك الخطبة هو حديث الإمام المطول عن أهمية هذا اليوم، وكيف أن الله قد منّ عليهم بفتح روميّا على يد البطل أمير البحر، خير الدين بربروس، بعد أقل من قرن من فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح، وأن هذا الفتح كان بمثابة العزاء للأمة الإسلامية عن غرناطة التي سقطت قبل ذلك الفتح بقرابة النصف قرن. لا يبدو لي هذا الكلام منطقيًّا، فكيف قام الموريون بفتح القسطنطينية بكل حصونها التي تحدث عنها الخطيب ليصلوا إلى فنائهم وهروبهم من بيوتهم بعدها بخمسين عامًا فقط؟ ثم إن الخطيب لم يتحدث عن سقوط غرناطة، على أنه كان مفرقًا بين الوجود من عدمه كما تعلمنا في يقطينيا، وإنما تحدث عنها كمعركة خاسرة توالت من بعدها الانتصارات. إضافة إلى ذلك، لم يذكر الخطيب الموريين خلال خطبته، ولا عن عنائهم بعد سقوط غرناطة ولا عن تمكنهم من إعادة بناء ما خسروه ليصلوا إلى نصر فتح روميّا، وكان كل حديثه عن القادة الأتراك أو السلاطين العثمانيين. كل هذه التساؤلات التي كانت تجول بعقلي جعلتني أغفل عما يحدث من حولي، فتفاجأت حين وكزني أحد المصلين الذي تنبهت أنه واقف الآن، بينما يقوم المؤذن بإقامة الصلاة. وقفت

متحرجًا لأصطف مع باقي المصلين. كبرت حين كبر الإمام، وهممت بوضع يدي على كتفي الأيمن وعلى خاصري الأيسر لأقبض على خنجري وسيفي كما تعودت طيلة حياتي، إلا أنني تنبهت بأن جميع المصلين من حولي قد أسدلوا أيديهم على جوانبهم؛ فأسدلتها خوفًا من الظهور كغريب بينهم، ولكن كيف يصلون بهذه الصفة الغريبة التي لم أرَ أو أسمع بها من قبل؟ وما حكم صلاتي معهم بهذه الصفة؟ هل أعيد الصلاة حين أعود لمسكني؟ إلهي رحماك بي، فحضوري لهذه الصلاة لم يزدني إلا حيرة على حيرتي التي بدأت منذ بدأت هذه الرحلة لفهم حقيقة تاريخ الموريين، فكلما حاولت أن أجيب على سؤال، واجهت سؤالا أكثر تحيرًا من سابقه.

انتهت الصلاة، وبدأ المصلون بالانتشار، ولبثت في مكاني أحاول أن أجد المارد الذي جاء بي إلى هذا المسجد، وفجأة وبلا مقدمات! لمحته وهو متجه نحوي، ثم التقت نظراتنا؛ فرأيت الدهشة تملأ تعابير وجهه الأسود، وبدأ بدفع المصلين في كل اتجاه ليصل إليَّ. لقد عرفني، لابد وأن أهرب قبل أن يصل إليَّ. في اللحظة التالية عبر أحدهم بيني وبينه ليحجبني عن نظره، فاستغللت تلك اللحظة لأختفي عنه تمامًا بين المصلين الخارجين لأفر بين الأزقة قبل أن يجد لي أثرًا.

□□□□□□□□□□

عدت إلى غرفتي؛ حيث كنت قد نصبت منظومة تمكنني من الاستماع لمعظم ما يقال في منزل المارد؛ حيث ثبَّتُ مجموعة من المجسات في جدار غرفتي الملاصق لمنزله، ثم أوصلتها بخيوط رفيعة ومشدودة إلى قطعة خشبية لتنقل تحركات الصدى إلى معَظّمٍ للصدى صنعته من قطعة جلد مشدود حول إطار خشبي. كنت قد أوصلت معظم الصدى بحاكي الصدى؛ ليقوم بحفظ الأصداء التي تصله إذا ما كنت خارج الغرفة لأتمكن من مراجعتها لاحقًا. إلا أن الحاكي لم يَحِكْ أي محادثات ذات أهمية خلال الأيام الماضية؛ فالشيخ لم يستيقظ حتى لحظة خروجي هذا الصباح، فهو لا يزال محمومًا ومنهكًا من صراعه مع الأقيانوس.

وقفت أمام المعظم أنتظر سماع صدى المارد، كدت أن يختل توازني حين سمعت صدى باب منزله يوصد بقوة متبوعًا بصدى المارد وهو يصيح بعصبية واضحة:

" يا حِمر، يا حِمر، إنه هنا".

لم يجد المارد أي رد وهو يرتقي درجات المنزل بسرعة كبيرة حتى توقفت حركته، لأسمعه من جديد:

" قم يا حِمر، لم يعد لدينا أي وقت، إنه هنا".

سمعت همهمة غير واضحة تلاها صوت المارد الغاضب:

" ومن يكون؟ إنه الباز، كنت أعلم أن العسكر يبحثون عن أحدكم، ولكنني توقعت أن يكون أحد الملاحين، ولم أتوقع أن يتمكن الباز من النجاة من الغرق،

ولم أتوقع أن يتمكن أحدهم من الدخول إلى المدينة مع وجود هذا الكم الهائل من الجنود الذين يبحثون عنه، هل تعلم ما يعنيه هذا؟ إن وصول الباز إلى هنا يعني أن مهمتنا تزداد تعقيدًا".

سمعت صوتًا مبحوحًا أعتقد أنه للشيخ:

" هذا رأي خِضر، فلماذا لا يأتي بنفسه ليصحح الأمر؟".

" أنت تعلم جيدًا أن قواعد التعامل في العِصبة تمنع تدخل أحدنا خارج نطاقه ما لم يصل التغيير إليه، وحتى الآن فإن التغيير في نطاقه يكاد لا يذكر".

" ومن قال إن هذا التغيير ليس تغييرًا إلى المسار الصحيح؟ ألا ترى ما نحن فيه من نعمة؟".

" لست أنت من يقرر المسار الصحيح، فقد تناقشنا في هذا، وأجمع بقية العِصبة على أنه يجب تصحيح هذا المسار، أهذا سبب وصول الباز إلى هنا؟ أتحاول الحفاظ على هذا المسار؟".

" لقد قُمت بما طلب مني، ولا ذنب لي في وصوله إلى هنا".

" هذا نقاش عقيم الآن، يجب أن نجده ونوقفه قبل أن يتفاقم الأمر، يجب أن نبلغ بَيَض بما يحدث هنا، أتوقع أن يتوجه الباز نحو نطاقه".

ثم بدأت مجموعة من الأصوات المتناغمة كأنها مئات من النحل تتحرك في غرفة الشيخ، واستمر هذا الصوت لبضع لحظات، ثم توقف فجأة كما بدأ.

" يجب أن نتحرك الآن، يجب أن نجد الباز قبل أن يجده الجنود".

يبدو أن المارد ساعد الشيخ على النهوض ليتوكأ عليه أثناء نزولهما درجات المنزل حتى وصلا إلى الإسطبل، ثم ساعده على ركوب فرس ليخرجا من المنزل على عجالة.

لا يزال هذا اليوم يزيد من حيرتي كل لحظة، والنهار لم يكد أن ينتصف، ولكنني أعلم الآن أن حِمر يعمل مع هذا المارد، وأعتقد أن له علاقة بغرق سفينتي، وأنهما يريدان أن يمنعاني من إتمام مهمتي، هل يعملان على الحفاظ على قانون العزل؟ يا لحظي التعس، فأنا الآن مطلوب من عسكر هذه المدينة، ومن هذه العِصبة التي تحدثوا عنها، لابد أن أخرج من هذه المدينة لأكمل مهمتي، فقد أضعت هنا وقتًا ثمينًا، ربي أي مفاجآت تنتظرني في هذا اليوم؟!

□□□□□□□□□□

يسيطر العسكر سيطرة كاملة على بوابات الدخول والخروج من هذه المدينة، فلا يدخل أحد ولا يخرج دون إبراز أوراقه الثبوتية، أما من جهة الأقيانوس، فإن امتداد أسوارها داخله لهذه المسافات الطويلة يجعل الخروج منها سباحة شبه مستحيلة خصوصًا وأنا محمل بهذه الأغراض التي جمعتها من حطام سفينتي. الطريقة الوحيدة لي الآن هي أن أتسلل إلى إحدى السفن المغادرة، حاولت الحصول على خارطة لفهم المنطقة وتحديد وجهتي القادمة، إلا أنني لم أجد من يبيع خرائط الملاحة هنا، ولكنني وجدت بحارًا رضي أن يرسم لي المعالم العامة

لهذه البلاد مقابل درهم، مدينة أكادير جزء مما أسماها بالخلافة العثمانية، وتقع في أقصى غرب هذه البلاد، فيما أسماها بأفريقيا، وإلى أسفل منها يقع مضيق جبل طارق؛ حيث أسماها البحار ببلاد الإسبان ضمن أراض أسماها لي بأوروبا، والتي أكد لي أنها ما كان يسمى بالأندلس فيما مضى، وإلى يسارها يقع الساحل الشمالي الأفريقي بمواجهة الساحل العلوي الأوروبي، والذي قال بأن غالبيته يقع إما تحت الحكم العثماني المباشر مثل روميّا، أو تحت حكم بعض الملوك الأوربيين الذين يدفعون الجزية للخلافة العثمانية، مثل الفرنسيين، وإلى يسارها توجد مصر بأهرام الفراعنة، وإلى يسار ذلك جزيرة العرب، حيث مكة والمدينة، أسفل منها بلاد الشام، وأسفل من ذلك بلاد الترك، حيث عاصمة الخلافة عند إسطنبول حيث تلتقي أوروبا بما أسماه بآسيا. سيكون هذا خط سيري، سأوثق رحلتي كاملة إلى أن أؤدي منسك الحج لأكون أول يقطيني يطوف بالبيت.

إن أفضل خيار لي الآن هي العنقاء، فقد علمت أنها ستبحر عند فجر الغد متجهة إلى روميّا لتصل إليها خلال خمسين يومًا أو أقل قليلا، وعلى حد قول البحار فإن جميع السفن المتجهة شرقًا لابد وأن تقف ولو لليلة واحدة في ميناء سبتة على مضيق جبل طارق. ستكون تلك محطتي الأولى لأنطلق بعدها إلى الأندلس.

توجهت إلى الميناء، حيث ترسو العنقاء، وتوقفت مبهورًا من حجمها، وقد زادها ضوء القمر المنعكس على سطح الأقيانوس هيبة وزادتها أضواء المصابيح المشتعلة غموضًا، لم أتمالك نفسي فأخرجت صائدة الظلال، واصطدت ظلال العنقاء، ومن خلفها أسوار المدينة الممتدة داخل الأقيانوس، مضت فترة من الزمن ليست بالقصيرة، وأوشك الفجر أن يؤذن وأنا أراقب السفينة آملا في أن أجد طريقة للوصول إليها، فقد كانت السفينة تحت حراسة مشددة ولا يصل إليها سوى من كان مرخصًا له بذلك. ثم سمعت صوت عنترة:

" أعلم أنني لست من ركاب هذه السفينة، هل تعلم من أكون؟ أنا الآغا عنترة".

" سيدي أنا أعلم جيدًا من تكون، ولكن التعليمات واضحة بألا أسمح لأي شخص كان من الاقتراب من السفينة، ناهيك عن الصعود إليها دون الإذن المباشر من أمير البحر".

" إذا فلترسل في طلبه حالا"

بدا الجندي مشدوهًا وهو يقول: " أرسل في طلبه؟ أنا؟ عذرًا سيدي، ولكنك تعلم جيدًا أنني لا أستطيع ذلك؛ فأنا جندي بسيط ولا أجرؤ على الإرسال في طلب أمير البحر، فهو من يرسل في طلبي لا العكس".

" لا وقت لدي لهذه التراهات، يجب أن أصل إلى إسطنبول عاجلا، وهذه أسرع سفينة يمكن أن تقلني إلى هناك، يجب أن أتحدث مع السلطان شخصيًا".

" يمكنني السماح لك فقط بالدخول إلى حيث مساعد أمير البحر بشرط أن

يرافقك أحد جنودي، هذا أفضل ما يمكنني عمله، وآمل ألا يجعلني أمير البحر أندم على ذلك".

" حسنًا، سأذهب لأحدثه وأعود بموافقة أمير البحر على صعود مرافقي".

كنت أراقب هذا الحديث من بضعة أقدام، ولاحظت أن حمزة يقف بالقرب من عنترة، وبجانبه تقف تلك الحسناء، لا زلت لا أصدق أن أباها عنترة، فكيف لمارد أن ينجب فتاة بمثل هذا الجمال والحسن! ومن خلفهم تقف مجموعة من الجنود الذين يلبسون زيًّا مغايرًا عن زي البحارة، ومعهم بضعة خيول، وجملان محملان بالأمتعة. لاحظت أحد الجنود يبتعد ببطء عن المجموعة، ثم توجه لأحد الباعة المتناثرين حول الميناء، وبدأ يقلب في بضاعته، هذه فرصتي.

تحركت تجاه الجندي وأنا حامل صرتي على كتفي، تظاهرت بالارتطام خطأ بالجندي الذي استشاط غضبًا إلا أنه تمالك نفسه خوفًا من أن يُفتضح أمر تركه موقعه دون علم سيده، تظاهرت بالاعتذار منه وأنا أتكئ على كتفه، فوخزته عند رقبته بمنوم قوي، وخلال لحظات بدأ الجندي بفقدان توازنه، فساعدته على الوقوف ليمشي مترنحًا معي دون أي مقاومة. وصلت خلف مجموعة من الصناديق المتراصة على الرصيف، كان الجندي قد فقد الوعي تمامًا، ففككت عنه دروعه العسكرية لألبسها، ووجدت بها بعض الأوراق الثبوتية، عدت إلى موقعه جوار الجمال، فثبت صرتي على ظهر الجمل، تظاهرت بمراقبة كل من حولي متفاديًا نظرات باقي الجنود، وبالأخص حمزة وابنه عنترة.

سمعت أذان الفجر، ومعه ظهر عنترة عائدًا، ومعه الجندي الذي رافقه:

" لقد أذن أمير البحر لهم بالصعود إلى العنقاء ومرافقتنا، اسمح لهم بالدخول سريعًا فأمير البحر يريد الإبحار حالا"

تحركت معهم وأنا أراقب مؤخرة الركب، ولم ينتبه أي منهم لما حدث، حتى صعدنا إلى العنقاء، وأشار لي أحد بحارة السفينة بأخذ الجمال والخيول إلى إسطبل السفينة لأبتعد بذلك عن عنترة وأتمكن من استرداد صرتي لأختفي في السفينة حتى نصل إلى سبتة.

(6)

شاهين

ليلة الثلاثاء الرابع عشر من رمضان عام *287* **س . غ .**

تسللت أنا وفداء أثناء صلاة التراويح خارجين من جامع قرطبة بعد أن تيقنت بأن أبي قد تقدم عني عدة صفوف، وأنه لن يتنبه لتغيبي عن الصلاة. كانت الليلة مقمرة ببدر مكتمل أضاء علينا الليل ليكاد يضاهي النهار، وأعتقد أن هذا كان السبب الرئيسي في أعداد المصلين الغفيرة هذه الليلة؛ ما جعل عملية خروجنا من الجامع دون أن يشعر بنا أحد أكثر صعوبة مما توقعنا. وصلنا إلى إحدى البوابات الخارجية العشرة للجامع، والتي لا زلت أقف مذهولا أمام حجمها وارتفاعها الشاهق الذي يكاد يلامس سقف الجامع المكون من طابقين، يرتفع كل منها لأكثر من ثماني أذرع، خصوصًا حين أتذكر بأن هذه البوابات تكاد تكون بقدم الجامع نفسه، أي منذ أكثر من قرنين ونصف. تنبهت لفداء الذي وكزني في أضلعي وهو يشير برأسه تجاه أحد جانبي البوابة، حيث يقف جندي من جنود الحرس الأميري وهو يراقب التحركات خارج الجامع، هذا ما كنت أخشى، فجميع الحرس يعرفون فداء حق المعرفة، وبعضهم يعرفني كذلك، ولن يسمح أي منهم لفداء بالخروج من الجامع دون حراسة، وذلك يعني بالضرورة أن يصل خبر تسللنا هذا إلى الخليفة؛ وبالتالي إلى والدي، ولن يسلم أي منا من تبعات ذلك. همس فداء في أذني:

" لنتسلق البوابات للدور الثاني ونخرج من سلم هناك".

مررت ببصري على البوابة من قاعها لقمتها، ثم إلى قاعها مرة أخرى، أي جنون هذا؟ ولكن ليس لدينا حل آخر، بلعت ريقي بصعوبة، وهززت رأسي بالموافقة، تقدم فداء نحو البوابة، وبدأ بالتسلق فتبعته، لقد قام الإمام من سجدتي الركعة الأولى، يجب أن نصل إلى الدور الثاني قبل أن ينهي هذه الركعة، وإلا فسوف تكون نهايتنا. وصل فداء إلى ارتفاع الدور الثاني بعد أن ركع المصلون وأنا على إثره تمامًا، تفحص فداء الفراغ بينه وبين السور المحيط بالدور الثاني، أعتقد أن تلك المسافة كانت ذراعًا أكثر أو أقل قليلا، وبلا مقدمات، قفز فداء بعد أن دفع جسده وبكل قوة نحو السور ليرتطم فيه بقوة، ولكنه أمسك بحافته، تنفست الصعداء وارتقيت خطوة أخرى وأنا أراقب فداء وهو يحاول رفع نفسه من فوق السور، تحركت يدي اليمنى بسرعة ممتدة نحو السور، بينما غيرت موضع يدي اليسرى لتمسك بآخر البوابة دون أن أفكر حين أفلتت قبضة فداء من على السور لأتمكن من القبض على يده اليسرى في اللحظة الأخيرة، صرخ فداء في رعب وألم، وهو ينظر في عينيه بنظرة شكر.

" أنتما، ماذا تفعلان هناك؟".

كان هذا صوت الجندي الذي يقف الآن تحتنا تمامًا، لابد وأنه قد سمع صرخة فداء.

" لقد افتضح أمرنا، سأتأرجح لأتمكن من قذفك إلى هناك".

هز فداء رأسه متفهمًا، وبدأ يحرك جسمه مع تأرجحات جسدي بينما وقف

الجندي يراقبنا دون حراك. ثم أفلت فداء وأنا أرفعه بكل قوتي ليطير في الهواء ويسقط في الدور الثاني من الجامع، ثم وقف فداء وتدلى بجسده من على السور لأقفز نحوه فيمسك بي ويساعدني لاجتياز السور.

" توقفا حيث أنتما" ، صاح الجندي بأعلى صوته.

" يجب أن نهرب بسرعة قبل أن يمسك بنا". قالها فداء وهو ينطلق بكل ما أوتي من سرعة نحو درجات الجامع ليهبطها في لمح البصر وأنا أتبعه خطوة بخطوة، وبعد أن ابتعدنا بضعة عشر قدمًا من الجامع سمعنا صوت الجندي ينادي من خلفنا؛ فزادنا ذلك حماسًا وسرعة حتى وصلنا إلى أطراف المدينة لنتسلل بين المارة تاركين المدينة وأسوارها خلفنا ونتجه نحو الغابة.

□□□□□□□□□□

لقد كانت فكرة ممتازة أن نخرج إلى الغابة في تلك الليلة (هذا ما كنا نعتقده) ، فقد كنا نعتقد أننا سنتمكن من الصيد في منتصف هذه الليلة بكل سهولة خصوصًا مع سطوع ضوء البدر، كنا نظن أن اصطياد الغزلان وغيرها سيكون أسهل بكثير وهي نائمة. ونحن اليوم سنصبح رجالا بعد أن أضاء علينا أول بدر بعد المئتين، فغدًا بعد الإفطار سيعرف كل منا توتمه، وسأحصل أنا على اسمي الذي سأعيش معه باقي ما يكتبه الله لي من عمر، قد تكون هذه آخر ليلة أسمَّى فيها باسمي الذي عرفته خلال المائتي شهر الماضية، لن أسمع من يناديني برباع بعد اليوم، كم كرهت هذا الاسم الذي أطلقه عليّ أخي الأكبر دلالة على أنني رابع إخوتي. ولكن ماذا سيصبح اسمي.

" فداء، ما هو الاسم الذي ستعتقد أنهم سيطلقونه عليك غدًا؟".

" لست قلقًا بهذا الشأن، فلم يتغير اسم أي من أبناء الخلفاء منذ أن تأسست الدولة اليقطينية".

" هذا غير صحيح، ماذا عن الخليفة رعد السماء؟".

" لقد كان ذلك أول خليفة للدولة اليقطينية، وقد تغير اسمه بعد الأربعين بعد معركة العيون الحمئة، وقد كان ذلك التغيير كناية عن إبداء اليقطينيين الاحترام لخليفة الموريين، وكان قبوله للاسم كناية منه لاحترام عادات اليقطينيين. ولكن ذلك لم يحدث من بعده".

" قد تصبح أنت التالي! ثم إنكم مع ذلك أصبحتم تشاركون في فعاليات ليلة البدر لتحديد تواتم أبنائكم وبناتكم".

" أراك متحمسًا جدًّا لفعاليات هذا الشهر يا رباع".

" لقد نفد صبري في انتظار هذا اليوم، أي اسم تظن أنهم سيطلقونه علي؟ الوحش الكاسر، التنين الجبار، السماء الملتهبة؟".

" هاهاها، قل القرد المتقلب، أو العنكبوت المتعلق، أو في أفضل الأحوال الجندب الوثاب".

" اضحك كيف شئت، أنا متأكد من أنني سأحصل على اسم عظيم، وتوتم

أعظم وسوف....".

" صه" أشار فداء نحو مجموعة من الأشجار المتداخلة، أنصت فسمعت صوتًا تحرك خلفها، رفع فداء قوسه موجهًا السهم نحو الأشجار، بينما أخرجت أنا خنجري المطعم بمطلاق وجهته في نفس الاتجاه. ظهر لنا ظلا يتحرك، أرسل فداء سهمه نحو الظل، واهتزت الغابة بصوت عويل وحش، فأطلقت ما بأحشاء مطلاقي ودوى الانفجار مع ومضة لهب انعكس لونها البرتقالي على كل ما حولنا لتجعل الغابة أكثر رعبًا مما كانت في ضوء القمر، وتحرك الظل نحونا بسرعة مذهلة، وصل على بعد أقدام معدودة من فداء ليقف على قدميه، فإذا به دب يناهز في طوله الخمسة أذرع، وقد كشر عن أنيابه البيضاء التي تلألأت في ضوء القمر وهو يلوح بمخلبيه بغضب، تحرك فداء فزعًا للخلف؛ فاصطدمت قدماه بحجر ليسقط على ظهره، تجمدت في مكاني للحظة نظر إليَّ فيها بعينين كأنهما لهب أحمر، ثم أعاد نظره إلى فداء وهو يتقدم نحوه، حاول فداء النهوض أو الابتعاد إلا أنه لم يستطع الحراك، حين اقترب الدب منه وهم بأن يهوي عليه بأحد مخلبيه تحركت أنا دون تفكير مهاجمًا الدب الذي ضربني بقوة هائلة على صدري بظهر كفه الأيمن ليرمي بي بضعة أقدام في الهواء قبل أن أرتطم بقوة في جذع شجرة متسببًا لي بآلام شديدة في ظهري، رأيت شيئًا يسقط من الشجرة أمامي، ولكني لم أتبين ماهيته، حاولت النهوض لأدافع عن فداء الذي عاود الدب التحرك نحوه، إلا أن آلامي كانت تمنعني من الحركة، هوى الدب بمخلبه على فداء الذي تحرك فجأة ليبتعد عن مخلبه الذي ارتطم بالأرض بقوة تناثرت معها الأتربة في كل مكان؛ ما زاد غضب الدب، فرفع مخلبه الآخر ليهوي به على فداء، وفجأة ظهر من بين الأشجار أيل عملاق يجري بسرعة خارقة لترتطم قرونه بالدب وتلقي به بعيدًا عن فداء. وقف الدب على أرجله الأربع وزمجر، ثم انطلق نحو الأيل ليلتحم معه في صراع لم أرَ له مثيلا بين مخالب الدب الحادة وقرون الأيل العريضة. انتهت بهجمة سريعة من الأيل نحو رأس الدب الذي لطم الأيل في رأسه بمخلبه ليتهتك وجه الأيل تمامًا ليسقط على فداء بكل وزنه، إلا أن الأيل كان قد وصل بقرونه جانب رأس الدب؛ فتسببت ضربة الدب بغرز قرون الأيل فيها ليسقط الدب مع الأيل قتيلا بجوار فداء. حاولت أن أقوم ثانية، ولكنني غبت بعدها عن الوعي تمامًا.

□□□□□□□□□□

للحظة ظننت أنني في غرفتي، وقد تسللت إليها شقيقتي نسمة الربيع كعادتها لتفتح نافذتي، وتجانب ستائرها ليقوم ضوء الشمس المشرق بإيقاض مضجعي، وضعت كفي أمام عيني لأحجب ضوء الشمس عنها وأنا أقول بصوت منزعج: " نسمة، ألا تكفي يومًا عن...".

ثم توقفت فجأة، تذكرت أنني في الغابة، أم كان ذلك حلمًا؟ شعرت بالألم في جسدي كاملا وبالأخص ظهري ورأسي، فتحت عينيَّ ببطء، بداية لم أستطع

رؤية أي شيء، فما بين ضوء الشمس الذي أعماني، وبين الدوار الذي اجتاحني بسبب اصطدام رأسي بجذع الشجرة البارحة بعد أن قذف بي ذلك الدب: " فداء" صحت بأعلى صوتي حين تذكرت ما حدث. فركت عينيَّ محاولا حثهما على الرؤية، وأصابني الذعر حين كان أول ما رأيت بركة الدماء التي أحاطت بفداء وجسده ملقى تحت ذلك الأيل. تحاملت على نفسي وأنا أنطلق نحوه بكل لهفة، جسست رقبته لأجد نبضات قلبه، حمدت الله على أنه لا يزال على قيد الحياة: " فداء، فداء" جعلت أكرر وأنا أهزه من كتفيه حتى أفاق.

" رباع؟! كيف وصلت... أين أنا؟ لا أستطيع الحركة!".

" سأحاول رفع هذا الأيل عنك، بينما تحاول أنت الخروج من تحته".

وضعت ذراعيَّ تحت الأيل، صرت أزمجر وأنا أحاول بكل قواي أن أرفع ذراعيَّ، بينما أدفع الأرض بكل ما أوتيت ساقيَّ من قوة، وارتفع الأيل قليلا؛ فتحرك فداء مبتعدًا من تحته إلا أنني انزلقت ليسقط جسد الأيل ثانية على ساقي فداء هذه المرة ليصيح بألم.

" هههههل أنت بخير؟ أجبني".

" ما ظنك أنت؟ هل أبدو لك أنني بخير؟".

" نحن اليوم سنصبح رجالا والرضوض والكدمات لا تؤذينا، قصدت هل كسر بك شيء وهل تنزف؟".

" أي هراء هذا؟ بعض الرضوض والكدمات؟ لقد أمضيت الليلة مثبتًا تحت جسد أيل ميت في وسط بركة من الدماء، أظنها له ولصاحبه الدب، ولكن لا، لا أظن أن بي أية كسور أو نزيف".

" إذًا فعليك بالجلد، وتحمل الألم، ستخرج من تحته، ولكنني لا أظن أن الدب صاحبه".

" ما رأيك أن نكمل هذا النقاش المثري بعد أن أخرج من تحته؟".

رمقته بنظرة سخط وأنا أعاود رفع الأيل ليتمكن فداء من الخروج من تحته هذه المرة، ثم بدأ يتحسس رأسه، حيث بدت بعض الدماء المتجمدة.

" لقد ضرب هذا الأيل المتهور برأسي على ذلك الحجر".

" لقد أنقذنا هذا الأيل، فلولا الله ثم تدخله لمزقنا ذلك الدب إربًا"

" ولكن لماذا؟" قالها فداء وهو يتفحص جسد الدب حيث أصيب بالسهم الذي أطلقه عليه قبل أن يتجمد في مكانه وهو يشير إلى مجموعة من الأشجار؛ حيث سمعنا صوت حركة. حاولت سحب خنجري من مكانه، فتذكرت أني قد فقدته البارحة عندما ضربني الدب، فجعلت أبحث عنه حولي لتقع عيني على فرخ صقر يتلوى على الأرض، أعتقد هذا ما سقط البارحة من الشجرة، لا وقت لديَّ الآن للتعامل مع هذا الفرخ، يجب أن أجد خنجري. جعلت أبحث بيدي في بركة الدماء، بينما تقدم فداء ببطء نحو الأشجار وأنا أحاول ثنيه عن ذلك خوفًا من أن يكون دبًا آخر.

" إنه أيل صغير" هذا ما قاله فداء بمرح حين تجاوز أغصان الأشجار ليختفي عن

نظري.
" أظن أن أباه قد هاجم الدب ليحميه".
" لا أعتقد ذلك؛ فقد كان بإمكانه الهرب مع ابنه وتركنا لمصيرنا مع الدب، نحن الملامان على ما حدث لأبيه وما حدث لهذا الفرخ، يجب علينا أخذهما معنا إلى قرطبة الجديدة لنعتني بهما".
" نعتني بهما؟ أين؟ في قصر الخلافة؟! أظن أن ضربة رأسك كانت أشد بكثير من ضربة رأسي".
" وما البديل برأيك؟"
" بديل؟ إنهما حيوانات من الغابة، البدييييل هو أن نتركهما حيث هما ونعود بسرعة قبل أن يقتلنا آباؤنا".
" لن أعود بدونهما، نحن من تسبب بهذه المشكلة حين تهورنا ودخلنا الغابة، وأقل ما يجب علينا عرفانًا بالجميل أن نعتني بهما حتى يكبرا".
" حسنًا حسنًا، ولكن لنتحرك حالا، فلابد وأن أبي قد أرسل جنوده بحثًا عني".
اقتربت من الفرخ لأحمله، فجعل يضربني بمنقاره وجناحيه ولكنني حملته على كل حال، بينما تبع الأيل الصغير فداء دون حتى أن يشير له فداء، وتوجهنا عائدين إلى المدينة.

□□□□□□□□□□

وصلنا إلى بوابات المدينة ولم يتنبه لنا أي من الجنود بالرغم من أنهم كانوا يتفحصون وجوه الجميع بحثًا عن فداء بعصبية مفرطة دون أن يحدثنا أحدهم، ودون أن يلفت الأيل الصغير أي تساؤلات، أعتقد بأن حالتنا المزرية ونحن ملطخون بالطين والدماء أخفت عنهم حقيقة هويتنا، أصر فداء أن نمر بمنزلي أولا: لنترك هذه الحيوانات، وثانيًا: لينظف نفسه قبل أن يذهب إلى قصر الخلافة فوالده لن يتمالك أعصابه إن رآه على هذه الحال. تمكنا من الوصول إلى حظيرة المنزل دون أن يلحظنا أحد؛ حيث تركنا الأيل والفرخ، ثم أكملنا تحركنا حول المنزل حتى وصلنا إلى نافذة غرفتي الموصودة، أخذت خنجري وزلقته بين ضلفتي النافذة، ونظرت ضاحكًا نحو فداء، بينما أشير له بحركة بهلوانية بالدخول وأنا أرفع الخنجر لأعلى محركًا المزلاج من مكانه لتفتح النافذة، تغيرت ملامح فداء فجأة، فأدرت وجهي ببطء نحو النافذة، وإذا بأمي تقف غاضبة في وسط غرفتي:
" أين كنتما طوال الليل؟ إن المدينة بأكملها تبحث عنكما، ادخلا هنا حالا"
هممت بأن أقفز إلى داخل غرفتي من النافذة، إلا أنني توقفت حين سمعت زمجرة أمي ورأيت نظرتها النارية نحوي؛ فأشرت لفداء بالعودة إلى باب الدار. وما أن دخلنا حتى تفحصتنا أمي بنظرها، ثم قالت بصوت حانٍ لا يتوافق أبدًا مع صوتها الغاضب قبل لحظات:
" ماذا حدث لكما؟ ما كل هذه الدماء؟ هل أصيب أحدكما؟".
تفحصتني أمي وهي تمرر يدها على رأسي قبل أن أئن من الألم حين

وصلت يدها إلى الكدمة خلف رأسي؛ حيث ارتطمت بجذع الشجرة. تماسكت نفسها وهي توجه اهتمامها نحو فداء بنظرة تساؤل.

" لا أعتقد أن بي أي إصابات سوى كدمة بجانب رأسي". ثم أشار إلى الدماء التي لطخت ملابسه: " هذه ليست دماءنا، إنها دماء أيل ودب".

" أيل؟! ودب؟!"

" إنها قصة طويلة، أتسمحين لي بالاغتسال بينما يحكيها لك رباع؟ فلا أود أن يراني أبي وأنا على هذه الحال".

هزت رأسها متفهمة، وأشارت له إلى غرفة الاغتسال.

" سيحضر رباع لك ملابس نظيفة، فأنتما بنفس الحجم تقريبًا".

" أشكركِ يا عمتاه".

وذهب ليغتسل ويتركني لأقص على أمي ما حدث لنا البارحة، وأتلقى كامل التوبيخ منفردًا.

□□□□□□□□□□

بالرغم من أن فداء قد أصر أن أذهب معه إلى القصر، إلا أنني رفضت ذلك تمامًا، فقد نلت اليوم من التوبيخ ما يكفيني لعدة عقود، ولا أظنني سأتحمل التوبيخ من الخليفة مباشرة. أصرت أمي أن أغتسل قبل أن أعود لأعتني معها بالحيوانين اللذين تركتهما بالحظيرة حتى لا يشم الأيل دم أبيه الذي تلطخت به. بالرغم من كل التوبيخ الذي كالته لي أمي على ما قمت به البارحة، إلا أنها دافعت عني حين عاد والدي غاضبًا مما فعلت؛ فقد سمع كل شيء من فداء في بلاط الخليفة، وقالت لأبي إن حرصي وإصراري على فداء بعدم ترك الحيوانين اليتيمين في الغابة، يدل على حرصي على سلامة جميع مخلوقات الله، والوفاء بالجميل لكل مخلوق مهما كان، وهي صفات تدل على أنني اليوم قد صرت رجلا.

أمضت أمي باقي ذلك اليوم معي تجهزني لمراسم الليلة بأفضل ملابس وأحلى طيب، وجعلت تسرد عليّ قصص أجدادي وعلاقتهم بمخلوقات الله في هذه الأرض، وكيف أن تلك العلاقة قد تغيرت لفهم أعمق وعلاقة أوطد بعد قدوم الموريين علينا، ففي القرآن الذي جاءونا به والحديث، معاني عن الحياة والأرواح أعمق بكثير مما كان أجدادنا يعتقدون. ثم بدأت تقص عليَّ قصص المخلوقات التي ذكرت في القرآن ابتداءً بهدهد سليمان - عليه السلام- مرورًا بالنمل والنحل والدواب وانتهاءً بالعنكبوت، وبعدها تحدثت عن المخلوقات في الحديث من ناقة الرسول - صلى الله عليه وسلم- واختيارها لموضع مسجده، مرورًا بقصة جذع نخلته التي كان يخطب عليها، وعلاقة الحب بين الرسول - صلى الله عليه وسلم- وصحبه، وبين جبل أحد. وبالرغم من أنني قد سمعت هذه القصص مئات المرات، إلا أنني ولأول مرة في حياتي كنت أستمع دون أن أستوقفها، فهذه المرة كانت أمي تتحدث لي وحدي، وكانت تهتم بي وحدي، وتفخر بي وحدي، لم أشعر أبدًا بمثل هذا الشعور، فلا أذكر يومًا قبل هذا أقضيه معها أنا وهي فقط،

فهي دومًا مشغولة بأبي أو بأمور المنزل وإخوتي، أو بزوجة الخليفة وأمور الدولة. ليت هذا اليوم يطول إلى أبد الدهر، ليتني أبقى هكذا شاغلها الأوحد. ولكن كما قال الشاعر " لكل شيء إذا ما تم نقصان" فقد وصل بنا الوقت إلى قبيل المغرب، فخرجنا جميعًا إلى الساحة الرئيسية بقرطبة حيث تقام جميع المراسم والاحتفالات، ولكنها اليوم تزخر بالوفود من كل بقاع يقطينيا، فهذه الليلة تمتاز عن غيرها بأنها أولا في منتصف رمضان، أي أننا مع غروب الشمس سنحتفل بإفطار نحمد الله فيه بأن رزقنا بصيامه، وثانيًا فالليلة مراسم توتمة ابن الخليفة الأوحد أي أن المراسم ستكون بحضور الخليفة شخصيًّا.

تراصت المصابيح في كل أرجاء الساحة لدرجة أن وهجها يكاد يطغى على ضوء الشمس وهي تغرب في الأفق، ونُصبت في أرجائها الخيام، حيث أصناف الطعام من كل ما لذ وطاب، وفي مركزها نُصبت منصة، حيث جلس حكماء بعض القبائل بمن فيهم أبي وبجواره حكيم قرطبة، وفي أحد أركانها وقف مشائخ التواتم الذين سيستقبلون الوفود الجديدة من الشباب لتعليمنا وتدريبنا في علوم تواتمنا التي سنتعرف عليها الليلة. وبالرغم من كل الصخب الذي كان يحيط بالساحة، إلا أن الأنظار كلها كانت تتحول نحوي بسبب إصرار أمي عليَّ بأن آخذ الأيل والفرخ معي لمراسم الليلة، وقالت لي إنني يجب أن أذهب إلى حكيم قرطبة بمجرد وصولى إلى الساحة وأحكي له عن أحداث الليلة السابقة؛ حيث إنه هو المسؤول عن مراسم هذه الليلة، وأن هذه الأحداث قد تؤثر عليها، لم أفهم ما تعنيه أمي، ولكنني لم أكن لأرفض لها هذا الطلب مهما تسبب لي من إحراج بين هذه الجموع.

وصلت إلى المنصة في وسط الساحة، ورأيت أبي ينظر لي بتعجب وهو يشير برأسه نحو الأيل الذي حمل الفرخ على ظهره. تجاهلت نظراته وإشاراته وأنا أنظر نحو جاره حكيم قرطبة:

" السلام عليكم يا حكيم قرطبة".

" وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا رباع، من صاحباك؟".

" إن لهما قصة، أتسمح أن تأتي لتفحصهما بينما أحكيها لك؟".

" بكل تأكيد يا بني".

نزل الحكيم من على المنصة واقترب من الأيل ليضع يده على رأسه ويربته بحنوٍّ.

" تعالَ لنمشي قليلا بينما تحكي لي قصتهما".

طفنا حول الساحة وأنا أقص عليه ما حدث البارحة وهو يهز برأسه ويصدر أصوات همهمة بين الفينة والأخرى، أحسست بأنه كان شارد الذهن، وأنه لم يكن يستمع إليَّ، وإنما كان يجاملني جبرًا لخاطري لا أكثر. حين انتهيت أوقف الحكيم الأيل ثم تحرك ليقف أمامه تمامًا ونظر في عينيه، ثم بدأ في إصدار أصوات غريبة، فرد الأيل عليه بمثلها، واستمر الوضع كذلك لبضع لحظات التفت بعدها الحكيم نحوي:

" يقول: إن أباه قد تقدم لإنقاذ فداء بأمر من خُماس الأحمر، هل التقيتماه؟"
" خماس؟! الأحمر؟! أهو خامس إخوته كما أنا رابع إخوتي؟".
" شيء من هذا القبيل، فهو خامس جماعته، ويطلق البعض اسم حِمر عليهم جميعًا، على حد علمي، فهم مجرد أسطورة، ولكن هذا الأيل مقتنع تمامًا بأن أباه قد قابل هذا الأحمر، وأنه هو من أمره بإنقاذ فداء، ولو كان هذا صحيحًا فهذا يغير الكثير".
" يغير ماذا؟ وما أهمية هذا الأحمر؟"
" لا عليك يا بني، عد أنت مع باقي الشباب في الساحة واترك هذين هنا معي".
عدت وقد ملأ الحكيم عقلي حيرة، من هو هذا الأحمر؟ ولماذا أمر الأيل بإنقاذ فداء؟ بل ولماذا لم ينقذه بنفسه؟ جلست في الساحة عند إحدى الموائد أنتظر الأذان؛ فقد كنت أتضور جوعًا. إذ إنني لم آكل شيئًا منذ إفطار البارحة. ولاحظت الحكيم يعود نحو المنصة ومعه الحيوانان اللذان سلمهما لأحد معاونيه، فأخذهما خلف المنصة، وبعد دقائق ظهر الخليفة، ومن خلفه زوجاته وفداء، الذي انفصل عنهم وتوجه نحوي حين رآني ليجلس معي على مائدتي بينما تقدم أبوه نحو المنصة ليجلس مع الحكماء، ثم تردد صوت المؤذن في الساحة لينشغل الجميع بالإفطار، ثم استوينا لنصلي المغرب قبل بدء المراسم.

□□□□□□□□□□

توجهت العيون نحو حكيم قرطبة الذي وقف في منتصف المنصة، وساد السكون أرجاء الساحة.
" في هذه الليلة المباركة، في ثاني أثلاث هذا الشهر الفضيل، يتحول مجموعة من أبنائنا وبناتنا إلى رجال ونساء بعد أن كانوا أطفالا، اليوم سيتعرف كل منهم على علاقته بباقي مخلوقات الله من خلال تعرفه على توتمه؛ ليفهم كل منهم عمق علاقة كل منا بهذا الكون الفسيح، وسيحصل معظمهم الليلة على أسمائهم التي سيعيشون بها ما تبقى من عمرهم؛ لتبقى هذه العلاقة معه ما كتب الله له من عمر".
ثم أشار بيده إلى معاونيه، ليختفوا خلف المنصة ويعودوا ومعهم الأيل والفرخ، وما أن صعدا بهما إلى المنصة حتى بدأت أصوات وهمهمات الجماهير، بينما نظر فداء تجاهي بنظرات متسائلة.
" أعلم أن هذا ليس ما اعتدنا عليه من قبل، ولكن يبدو أن هذه الليلة تزداد تميزًا، إن عملية اكتشاف توتمك تحتاج إلى جهد وبحث عميق في ذاتك، ويساعدك فيه أحد الحكماء لفك شفراته، ولكن وفي حالات نادرة تحدث كل ألف شهر أو أكثر، يقوم التوتم باختيار صاحبه، وفي هذه الليلة فوجئت بأننا على لقاء نادر ليس مع شابين في نفس الوقت، فليعتليا هذه المنصة لنبدأ مراسمنا، وليتقدم البقية نحو المنصة ليذهب كل مجموعة منهم مع أحد الحكماء، وأما

بالنسبة لشاباتنا، فسيجدن الخيام الخاصة بهن في أطراف الساحة ليلتقين بحكيماتنا اللاتي سيساعدنهم، رباع ابن الذئب الحكيم، تعال إلى المنصة ومعك فداء ابن خليفتنا".

لم أتوقع هذا، كنت أتمنى أن أستكشف توتمي في الخفاء كما يفعل الجميع، فلم أكن أعلم أن عملية اختيار توتمي يمكن أن تحدث هكذا على الملأ. تقدمنا بخطوات ثقيلة نحو المنصة وجميع الأنظار قد تركزت علينا تترقب وصولنا إلى المنصة؛ فقد امتلأت عقولهم فضولا لمعرفة التفاصيل، صعدنا درجات المنصة ليقف فداء عند الحكيم وأقف أنا جواره.

" لقد ضحى والد هذا الأيل بحياته لإنقاذك، ولقناعته بأنه سيقع على عاتقك يومًا مهمة حفظ هذا الدين وهذا الوطن، لقد اختارك توتم الغزال؛ فأنت سريع الحركة فوق أرض صلبة، ولديك القدرة على تغيير اتجاهك بسرعة وخفة، عليك بالحكمة، فالسرعة دون حكمة قد تؤدي بك وبمن تحب إلى الهلاك. ستُعرف من هذه الليلة باسم فداء الدين".

ثم نظر الحكيم نحوي: " أما أنت، فقد اختارك توتم الكواسر، فلديك بُعد نظر في الحق، وتتحرك سريعًا نحوه قبل أن يتنبه له الآخرون، فأنت خير دليل لأخيك الغزال، سنعرفك من الليلة باسم الباز المنقض".

ثم أشار إلى معاونيه ليقربوا الأيل والفرخ:

" أما هذان، فهما أخواكما من أبناء الغابة، هذا الأيل اسمه حراك، وأما الصقر فقد أخبرني صديقي شيخ الكواسر بأن اسمه شاهين، هما اليوم في رعايتكما حتى يكبرا ليتمكنا من العودة للغابة سالمين، ولقد أصر كل من شيخي الكواسر والغزلان بأن يعلماكما مهارات توتمكما شخصيًّا".

لم أكترث، ولم أتنبه كثيرًا لما حدث بعد ذلك في تلك الليلة، فكل ما كان يهمني أنني لم أعد رباعًا، فأنا الآن الباز المنقض ابن الذئب الحكيم، نعم هذا هو اسمي، هذه هي هويتي.

(7)

أسطورة جبل

فجر الخميس في أواخر جماد المتقدم عام *291* س . غ .

لقد أمضيت خمسة أيام بلياليهن على سفينة العنقاء، متظاهرًا بأني أحد الجنود في الجيش العثماني، كنت أتفادى الاحتكاك بركاب السفينة قدر المستطاع؛ خوفًا من أن تفضحني لهجتي اليقطينية كما أنني لاحظت أن بعض الجنود يتكلمون لغة غير العربية، ما كان سيزيد وضعي سوءًا لو خاطبني أحدهم بها، والأهم من ذلك أنني كنت أتفادى عنترة وابنته وحمزة حتى لا يفتضح أمري، فهم وحدهم بين جميع هؤلاء الركاب من قد يعرفون شكلي. كل هذا اضطرني أن أبقى يقظًا معظم الرحلة، فلا يوجد موضع أنام فيه دون أن يفتضح أمري. غفوت هذه الليلة وأنا جالس على ميسرة السفينة متكئًا على سورها بجبهتي، بينما تركت قدميَّ تتأرجحان خاجها وقد التحفت بحرملتي التي غطت رأسي، استيقظت قبل أول ضوء للشمس، أيقظني شعور حزن عميق، لم أتبين ماهيته في بادئ الأمر، إلا أنني بدأت أفهم ذلك الشعور أكثر مع مرور الوقت، فقد كان حزنًا ممزوجًا بشوق وحنين على فراق قد مضى عليه عدة قرون، وعرفت يقينًا مصدر ذلك الحزن حين بزغ ضوء الفجر الأول لأرى في الأفق جبلا كأنه جزيرة في هذا البحر الممتد، سمعت همسات تناقلتها الرياح تحمل اسم جبل طارق، أسرعت إلى باطن السفينة لأحضر صائد الظلال، عدت إلى حيث كنت، وثبَّتُ الصائد على جانب السفينة، بينما أحاول اصطياد ظلال هذا الجبل العظيم، ولم أكد أنتهي من اصطياد ظليلتين له حتى تجمدت أواصري حين سمعت صوتًا أنثويًّا يقف بجانبي:

" خبئ هذه الأداة حالا قبل أن يراها أبي فهو على أثري".

لم أجرؤ على الالتفات أو حتى السؤال، فسحبت الصائد بسرعة لأخفيه بحرملتي، ثم سمعت صوت عنترة من خلفي:

" ها أنت ذا يا عبلة، أراك لا زلت مولعة بجبل طارق".

" ليتني يا أبت أستطيع حبس ظلاله كما يقول صاحب هذا الكتاب لأحمله معي في كل مكان".

قهقه عنترة: " ما هذا الكتاب الذي تحملين سوى خرافات مجنون قد أهلك عقله الدهر، من أين يأتي شخص باسم كـ" عبد رب الشمس الآجيبي" ، ثم يدعي بأنه يستطيع اصطياد الظلال التي أرسلها الله، بل ويزيد على ذلك بأن يقول إنه يستطيع حبس الأصوات على عود من الخشب غُزل بخيط من حرير، أي تراهات هذه؟!".

" ولكن، ألن يكون ذلك رائعًا".

" تمامًا، كما روعة لو أن بني آدم يستطيعون الطيران كما أراد عباس، وكلنا يعلم ما حل به؛ فقد صار عبرة لكل حالم مجنون".

" ولكن يا أبي هذه الأحلام هي ما تدفعنا للحياة".

" نعم، هي ما تدفعكم معشر الشباب، أما نحن فما يدفعنا هو حلمنا بأننا

سنساعدكم على العودة إلى واقع الحياة في يوم من الأيام، أما الآن، فأنا على موعد مع أمير البحر لأناقشه في أمرٍ صاحب هذا الكتاب، كيف لنا أن نجد جاسوسًا لا نعرف شكله، ألا تذكرين شيئًا من ملامحه يا بنيتي؟".

" لقد كان الليل مظلمًا، ولم ألقه سوى لحظة مفجعة عابرة".

" ليتني كنت قد دققت النظر فيه قبل حبسه، فلا يذكر أحد من جندي وجهه، إذ كان عافرًا حين وجدناه، ولقائي معه في الزنزانة كان مظلمًا، أما في مكتبي فقد كان يغطي وجهه، ولهذا يجب أن نحذر السلطان، وأناقش خياراتنا مع أمر البحر. حسنًا، ألقاك حين نرسو لننزل إلى الميناء سوية" ، ثم سمعت خطواته وهو يبتعد وخطواتها وهي تقترب مني، ثم توقفت على جانبي الأيسر وأمسكت بجانب السفينة، أدرت وجهي نحوها في حيرة من أمري، ولكنني لم أستطع أن أنبس ببنت شفة. تغيرت ملامحي ببطء من الحيرة إلى الانبهار؛ فلم أستطع الإشاحة بنظري عن وجهها الذي لم أرَ قبل مثل جماله، لا أعرف كيف أصفها؛ فكلمات لغتي لا يمكنها إيفاءها حقها؛ فسُمرةُ بشرتها غريبة، لم أرَ مثلها في يقطينيا، ولا في الموريين، وعيناها خضراوان بلون عشب الحقول في الربيع، أما قوامها، فحدث ولا حرج، فقد تكفلت رياح البحر بكشف تفاصيله بالكامل. تنبهت لنفسي فتحولت ملامحي إلى الخجل:

" عذرًا.... أعني شكرًا.... أقصد....".

" هدئ من روعك، أنا أعرف من أنت، أنت ذلك الفتى الذي هرب من قبضة أبي منذ ما يقرب الشهر".

" من؟ أنا؟ عذرًا آنستي، فما بال هارب أن يركب مثل هذه السفينة؟!".

" لا تحقرني، فقد علمت شخصك لحظة وقع بصري على ذلك الصائد بيدك، وتأكدت الآن حين رأيت القلق في عينيك، أنت نفس الشخص الذي ترك هذا الكتاب في يدي ذلك اليوم" ، ورفعت يدها اليسرى لتلوح لي بالكتاب، بينما أكملت: " ولو أنكرت ذلك ثانية، فسأضطر لإبلاغ حرس أبي ليتأكدوا من ذلك بأنفسهم".

" لو فرضنا جدلا بأنني بالفعل من تدعين، فلم لم تبلغيهم إذًا؟".

" لسببين، أولهما - وهو الأهم-: أن أتأكد من أن هذه ليست خرافات، ثانيهما: أنني واثقة من أنك لا تنوي إيذاءنا، لأنك لو كنت تنوي ذلك لكنت تركت أبي في مكتبه ليحترق، أو لآذيتني يومها لأخذ هذا الكتاب مني، ولكن ذلك ليس من خصالك".

" وإذا رفضت؟".

" ستضطر أن تشرح لجند أبي ما في هذا الكتاب، وأؤكد لك بأنهم بطيؤو الفهم جدًّا".

تبسمت: " هههه، أعتقد أنني أفضل أن أشرحها لك، ولكن أباك؟".

" لا تخف. فأبي في لقاء مع أمير البحر، ولن ينتهيا من حديثهما قبل رسو السفينة في سبتة".

" وماذا بعد ذلك؟".
" لكل حادث حديث".
" حسنًا، كيف يمكنني مساعدتك؟".
جلست إلى جانب السفينة، وفتحت الكتاب، فجلست بجوارها، لا زلت غير مصدق أن ماردًا كعنترة والد هذا الكائن الذي ينافس بجماله نساء العالم مجتمعات.
" هنا، الفضة السامة، ما هذا؟!".
" هذه مادة سامة للغاية، ولكنها تتأثر بالضوء، فهي داكنة اللون ولكنها تغير لونها تبعًا لشدة الضوء الذي تتعرض له، فلو تعرضت لضوء الشمس مباشرة تفقد لونها تمامًا. نذيبها في الماء مع بعض الأملاح والأحماض، ثم تُرش على قطعة ورق أو قماش قد سُلطت عليها الأضواء المنعكسة من على الأجسام التي ترغبين باصطياد ظلالها؛ فتغير الفضة لونها فوق سطح القماش، ويتبخر الماء لتقوم الأملاح والأحماض بحفظ لون الفضة".
" ولكن كيف تصطاد ظلال جبل يبعد كل تلك المسافة من هنا؟".
" نقوم باستخدام منظار متصل بـ...".
لم أتوقع يومًا أن أقابل أحد بهذا الشغف لمثل هذه العلوم في العالم القديم، فكل ما قيل لنا عنهم يدل على أنهم غير متحضرين، ناهيك أن تكون بمثل هذا الجمال، وبهذه القدرة الفذة على استيعاب وفهم مثل هذه المبادئ الحديثة، لقد مضى بنا الوقت سريعًا لينقطع مع وصولنا إلى ميناء سبتة.
" لقد وصلنا إلى الميناء، وسيبحث عني أبي الآن، تذكر ستبحر السفينة بعد صلاة العشاء من ليلة الثلاثاء الأول من جماد الثاني".
" تقصدين جماد المتأخر؟".
" هههه، نعم هو ذاك، توجه إلى رئيس البحارة قبل مغادرتك هذه السفينة، وقدم له أوراقك الثبوتية ليقوم بتسجيلك في قائمة الركاب".
" أشكركِ، ولكن لم تثقين بي إلى هذا الحد؟".
" لدي قدرة على قراءة الأشخاص، وأنت أهل للثقة، يجب أن أجد أبي قبل أن يجدنا".
ثم أدارت ظهرها لي، واتجهت نحو مقصورة القبطان، تابعتها بنظري حتى أغلقت الباب من خلفها.

(8)

جبال أباتشة

قبيل فجر الأحد الرابع عشر من المحرم عام *290* س . غ .

استيقظت على أصوات تحركات بين الأغصان من حولنا، فتحت عينيَّ على ظلام دامس. مددت يدي اليمنى لأربت على كتف فداء لأوقظه، فإذا به يربت على كفي ليؤكد لي أنه يقظ وقد سمع ذات التحركات. أصدر فداء أصوات حشرجة مخاطبًا حراكًا، فقد غرب البدر واختفى ضوئه، والغزلان لديها القدرة على الإحساس بما حولها في هذه الظلمة. أخشى ما نخشاه الآن أن يكون جيش جبل قد علم بوجودنا بهذه السرعة، إذ إننا وصلنا بالكاد وبعد جهد وعناء شديدين إلى غابات العظماء عند سفوح جبال أباتشة الشرقية، كان المكان شديد البرودة، وكنت حانقًا على فداء لإصراره على عدم إشعال أي نيران. مضى الزمن بطيئًا ونحن ننتظر ما سيعود به حراك عن مصدر الحركة، ومع مضي الوقت تزداد أصوات الحركة من حولنا وتقترب. أخرجت سيفي وخنجري من غمدهما، وتأهبت للانقضاض.

" إنها حيوانات نازحة من الغرب" همس فداء، " من بينها عدد لا بأس به من الأيائل سيحاول حراك معرفة ما يحدث منها".

أعدت سلاحيَّ في غمدهما: " سأعود إلى النوم، إذ إننا نحتاج إلى الراحة بعد أن قطعنا مسيرة عشرين يومًا في خمسة عشر فقط، أيقظني إذا جد جديد أو بزغ الفجر".

لم أكد أنهي جملتي حتى شعرت بفأر يعبر من فوق جسدي، ثم تلاه آخر، ثم مجموعة من الأرانب، ثم تنبهت لصوت أقدام حيوانات أكبر من ذلك بكثير. هببت واقفًا على قدميَّ، وارتطم بي جسد ما، أظنه إيل متوسط الحجم، حاولت تفاديه؛ فارتطمت بآخر أكبر منه كاد أن يسقطني على وجهي، وتتالت من بعده الارتطامات، وأنا بالكاد أحافظ على توازني.

" يقول حراك بأننا يجب أن نحتمي بجذوع الأشجار؛ فأعدادها غفيرة ومرتبكة، لم يستطع أن يحصل على أي معلومة مفيدة منهم عما يحدث".

أصدرت عدة أصوات صرخات مخاطبًا شاهين، رد عليَّ بعدها مباشرة.

" الظلام حالك، ولا يستطيع شاهين الرؤية تحت هذه الأشجار، سيحاول الارتفاع ليرى ما يحدث عند قمة الجبل أو خلفه".

" قل له بأن يعود مع بزوغ الفجر، فلا أريد أن يراه أحد؛ فحركته عكس باقي الحيوانات ستثير الريبة".

صرخت عدة صرخات، رد علي شاهين بالموافقة بعدها.

" أعتقد بأننا وصلنا هنا في نفس الليلة التي وصل فيها جيش جبل، فلابد وأن هذه الحيوانات قد نزحت بسبب تخييم الجيش في الجهة الغربية من هذه الجبال". كنت أتحدث بصوت عالٍ ليتمكن فداء من سماعي في هذا الضجيج من الحيوانات، ولكنني لم أسمع منه أي إجابة. كبحت رغبتي الشديدة بالصراخ بأعلى صوتي لمناداته والتأكد من سلامته، ولكنني آثرت السكوت حتى لا

أتسبب بفضح وجودنا هنا لعسس جبل الذين أجزم بأنهم متواجدون الآن في المنطقة.

مضى الوقت بطيئًا، ولا زالت الحيوانات تجري من حولنا بخوف مبتعدة عن جبل أباتشة. صرخت بأعلى صوتي:

" إنه الجبل يا فداء".

بعد لحظات شعرت بفداء وهو يدفع نفسه خلف جذع الشجرة التي أحتمي بها.

" ومن غير جبل سيقوم بهذا؟".

" لا، أنت لم تفهم قصدي، إنه الجبل، جبل أباتشة، هو المتسبب في هذا الاضطراب، فهذه الحيوانات بكل تأكيد لم تتسلق الجبل من الجهة الغربية لتهرب من هنا، فلابد وأنها جميعًا من هذه الغابات الشرقية للجبل، فكيف لجيش أن يرهب كل هذه الحيوانات لجعلها تهرب من مسكنها في هذه الغابة؟! فلا توجد أي نيران مشتعلة في قمة الجبل، وإلا كان شاهين رآها وأخبرني بها، ولم نسمع أي أصوات شديدة الإزعاج لترهبهم بهذه الطريقة".

" وكيف تسبب جبل أباتشة بهذا؟".

" لابد وأنها كانت رجفة، لابد وأن هذا ما شعرنا به وأيقظنا، لقد ارتجف جبل أباتشة".

" ارتجف الجبل؟ أي هراء هذا؟!".

" أليس هذا توتم جبل بن صراع؟ لابد وأنه قد تواصل مع الجبل".

" هذا جبل من حجر مصمت لا يتحرك، فكيف له أن يجعله يرتجف؟!".

" لقد أمضيت بعضًا من الوقت مع الشيخ حاتم بن عبد رب السماء، أحد مشائخ الجبليين، وقد حدثنا بأن جبل أحد، وجبل النور قد اهتزّا، وبأن اهتزازهما كان من فيض المشاعر التي اعترتهما".

" وكيف لجبل بن صراع أن يقوم بذلك؟!".

" ليس الجبل توتمي، ولكن الشيخ قد علمني بعض طرق التواصل وجدانيًّا مع الجبال، دعني أحاول لعلي أفهم ما قد اعترى الجبل".

قال فداء باستهزاء: " تفضل، فليس لدينا ما نقوم به الآن".

تجاهلت نبرته، وسبحت الله وحمدته، ثم بدأت بقراءة ما فتح الله به عليَّ من آيات الجبال وأنا أحاول فتح مداركي لأستشعر مشاعر جبل أباتشة. ومع الوقت بدأت تعتريني مشاعر الغضب، غضب غريب لم أشعر به من قبل، غضب يمتزج بشيء من الاحتقار، بل هو أقرب إلى الازدراء.

" أظنني أعلم ما حدث، أظن أن جبل أباتشة قد استشعر جبل بن صراع بحكم قوة علاقته بالجبال التي هي توتمه، ولابد وأنه قد استشعر سبب وجوده هنا من إيقاد نيران الحرب، ورغبته في سفك دماء المسلمين، أظن أن الجبل قد ارتجف غضبًا ورهبة من تلك الخاطرة".

" كنت على وشك أن أتهمك بالجنون، لولا أن حراكًا قد أخبرني للتوّ بأنه علم

بأن الحيوانات تهرب من سفح الجبل بسبب اهتزازه، ولكن كيف استطعت التخاطب مع الجبل وما هو بتوتمك؟!".

" لا أستطيع التخاطب معه، ولكن الشيخ حاتم أخبرني بأنني أملك قدرة يندر أن يملكها من هم من خارج توتم الجبل، وهي القدرة على استشعار مشاعر الجبال".

" لمَ لمْ تخبرني بذلك من قبل؟".

" لأنني كنت أعلم أنك لن تصدقني، وستتهمني بالجنون".

تنبهت بأن الوضع قد هدأ من حولنا، وأننا لم نعد محاصرين بالحيوانات الهاربة، ثم سمعت صوت شاهين الذي أبلغني بأنه رأى لهيب المئات من نيران غرب سفوح جبل أباتشة. لقد نصب الجيش مخيمه بالفعل.

" باز، مر شاهين بإحصاء نيران جيش جبل".

" لقد أخبرني أنها بالمئات، ولا أظن أنه قادر على إحصائها بدقة أكبر من ذلك، فالعد لم يكن يومًا من سماته القوية، فقد تكون بالآلاف، ولن يعرف الفرق".

" إذًا فعلينا الوصول إلى قمة الجبل، ومعرفة ذلك بأنفسنا، علينا أن نسرع، فسنحتاج يومًا كاملا على أقل تقدير حتى نصل إلى قمة يمكننا منها رؤية السفح الغربي للجبل ومخيم الجيش".

نظرت إلى الجبل الذي بدأ يتلألأ مع أول خيوط الفجر، بينما ربت على رأس شاهين الذي هبط على كتفي الأيسر وأنا أفكر في اليوم الشاق الذي أمامنا.

□□□□□□□□□□

ارتميت على ظهري ألهث من التعب بعد أن أمضينا يومنا في تسلق جبل أباتشة حتى وصلنا إلى أقرب نقطة تمكننا من رؤية الوادي بجهته الغربية. وقف شاهين بجوار رأسي، وجعل ينقرها ليدفعني إلى الموافقة له بالتحليق والاقتراب من مخيم الجيش، بينما انبطح فداء بجانبي ليأخذ أنفاسه هو الآخر، ولتفادي أن يرانا أحد. أشرت لشاهين بموافقتي بعد أن أقنعني بأن تواجده الآن محلقًا لن يثير أية شكوك؛ فهذا هو الوقت الذي اعتاد الاصطياد فيه. مهمتنا الآن هي محاولة معرفة حجم الجيش وعتاده، فبالرغم من ضعف قدرات شاهين الحسابية، إلا أنه يجيد تقدير المسافات والمساحات، لذلك سيقوم بتقدير المساحة التي اتخذها الجيش لمخيمه؛ ما سيعطينا فكرة تقريبية عن حجمه، بينما سيحاول حراك الاقتراب من الجيش لمعرفة عتاده وعدته، وفي تلك الأثناء سنقوم أنا وفداء بمراقبة تحركات الجنود، وطريقة توزيع الخيام لمحاولة استنتاج فئات الجيش وتقسيمه.

لم يبقَ أمامنا سوى دقائق معدودات قبل غروب الشمس، وبعدها بضع ساعات من ضوء البدر، يجب أن نستغلها لنجمع أكبر قدر من المعلومات. انقلبت على بطني، وأخرجت صائد الظلال من حقيبتي لأتفقد مخيم الجيش من خلف الجبل، وأوثق كل ما أراه. كانت النيران مشتعلة في جميع أرجاء مخيم مترامي

الأطراف، وقد تراص الجنود حولها للتدفئة، يحيط بالمخيم مجموعات من دوريات الحراسة التي سُلحت بعضها بمطاليق مزودة بنواظير. لقد لاحظ أحد الحراس تحليق شاهين فوق المخيم، فنزل الجندي على ركبته اليمنى، بينما أسند كوعه الأيسر إلى ركبته اليسرى، ووجه مطلاقه نحو شاهين، أردت أن أحذر شاهين، ولكن أي صوت أصدره لأحذر شاهين سيصل إلى الجندي ويؤكد له شكوكه بأن شاهين جاء مرافقًا مع شخص للاستطلاع، بالإضافة إلى كشف موقعنا للجيش، حبست أنفاسي وأنا أراقب الجندي وهو يراقب شاهين بمنظار مطلاقه، ثم رأيت الوميض من مطلاقه تبعه دوي انفجار، رفعت رأسي في هلع نحو شاهين؛ فرأيته يسقط بسرعة باتجاه المعسكر، كدت أصرخ في مرارة، ولكن يد فداء على كتفي أعادتني لواقعنا، فذرفت الدمع وأنا أشاهد صديقي يسقط من السماء. وجهت منظاري تجاه شاهين في محاولة بائسة لمعرفة مكان سقوطه، علني أجد طريقة لإنقاذه، تجمدت الدموع في عينيَّ حين فرد شاهين جناحيه قبل أن يرتطم بالأرض ليختطف بقدميه دجاجة في يد أحد الجنود الذي قد هم بإلقائها على النار لشوائها، وعاد شاهين للتحليق عاليًا، بينما جعل الجندي يصرخ بحنق تجاهه، وانفجر الجند من حوله في ضحك هستيري غريب. أعدت نظري نحو شاهين الذي حلق مبتعدًا عن الجيش ليعود نحو أحد قمم جبل أباتشة البعيدة عنا نوعًا ما قبل أن يختفي تمامًا في ظلمة السماء.

" لم أعلم أن شاهين سريع البديهة وبارع التمثيل".

" الحمد لله الذي نجاه؛ فقد كدت أن أفقد أحد أعز أصدقائي".

" الحمد لله، هل رأيت ذلك المطلاق الذي استخدمه الجندي من قبل؟".

" لقد سمعت عن نوع جديد من المطاليق، مزودة بمناظير، ولديها القدرة على إصابة أهدافها على بعد آلاف الأقدام، أعتقد أن اسمها قانصة".

" علينا أن نوصل كل ما رأيناه هنا إلى والدي، قم بكتابة كل شيء لنرسلها مع شاهين".

قمت بكتابة كل ما جمعناه عن الجيش من تقسيمات، ومعدات، وأسلحة حديثة، وآلات بخارية تحمل المدفعية، صرخت بصوت صقر حاد طالبًا من شاهين العودة إلى موقعنا لأعرف منه المساحة التي يحتلها مخيم الجيش حتى أضيفها في الرسالة التي وضعتها في جراب مع الظليلات التي اصطدتها، وربطت الجراب بإحدى قدميه وأمرته أن يذهب به إلى العين الحمئة ليسلمها إلى الخليفة شخصيًّا. وقبل أن ينطلق، سمعت أصوات عدة كواسر من مواقع مختلفة حول الجبل، ثم ظهرت عدة ظلال محلقة في سماء هذه الليلة المقمرة.

" انطلق يا شاهين بأقصى سرعة؛ فقد علم القوم بوجودنا، قم يا باز، علينا أن نهرب بسرعة قبل أن يصلوا إلينا".

لم يكد فداء ينهي عبارته حتى سمعنا عويل ذئاب تقترب منا. إنهم تواتم الذئاب، أفضل قصاصي الأثر، لن يكون الإفلات منهم سهلا أبدًا.

" يقول حراك بأنهم على بعد أربعة آلاف قدم أو أقل قليلا، لابد وأنهم قد نشروا

مجموعة من العسس هنا على قمة الجبل، لن نستطيع رؤية طريقنا في هذه الغابة الكثيفة التي تمنع ضوء القمر من الوصول إلى أرضها، سنتبع حراكًا، سيكون هذا ممتعًا أليس كذلك؟“

” بكل تأكيد، فلا أجمل من أن تجري بأقصى سرعة هبوطًا على سفح جبل في غابة ظلماء كثيفة على إثر غزال، فارًّا بحياتك من قطيع ذئاب“.

□□□□□□□□□□

لقد كان هبوطنا في تلك الليلة من أصعب الأمور التي قمت بها في حياتي، فقد ارتطمت عشرات المرات في جذوع أشجار، وسقطت عدة مرات بعد أن تعثرت في حجر أو غصن، فداء كان أكثر حظًا مني بسبب المهارات التي تعلمها من توتمه الغزال في استخدام جميع حواسه في الظلام لاستشعار العالم من حوله، ومع ذلك، فقد ارتطم هو كذلك في عدة أشجار، وسقط بضع مرات. كان صوت الذئاب يقترب منا مع مرور الوقت، فالليلة ليلة بدر كامل، إنها ليلة الذئب، فلا منازع لقدرات الذئب في مثل هذه الليلة، لن نصمد طويلا بهذه الطريقة؛ فسيلحقون بنا عاجلا أم آجلا.

” فداء، لن نفلح بالفرار، فهم أسرع منا في هذا الظلام، علينا أن نجد حلا آخر“.

” هل لديك اقتراحات؟“.

” سل حراكًا عن بعدهم عنا“.

” أقل قليلا من ثلاثة آلاف قدم“.

” أحتاجه أن يجد لنا رائحة روث أي وحش، دب أو قط بري“.

” ماذا تنوي؟“.

” سنختبئ بين الشجيرات تحت الأغصان بعد أن نمرغ أنفسنا بروثها، فالذئاب تتبعنا الآن برائحتنا، وستتفادى بكل تأكيد رائحة هذه الوحوش“.

” يقول حراك: إننا سنحتاج أن نغير اتجاهنا، ونتعمق في الغابة بضعة آلاف قدم، هذا سيبعدنا عن طريق الفرار“.

” لن ينفعنا طريق الفرار، قل له يدلنا إليها“.

” لا تعجبني فكرة أن أتمرغ في روث“.

” ليس لدينا خيار آخر“.

غير حراك اتجاهنا من الشرق إلى الشمال الشرقي، وصلنا إلى بقعة تعبق برائحة كريهة جدًّا، هذه ليست رائحة روث، إنها رائحة جثة متعفنة، فتوقفنا.

” وجدتها، إنه دب ضخم ميت، ما العمل الآن؟“.

” قم بفتح أحشائه واحملها في حقيبتك“.

” مجنون أنت؟ ولماذا لا نختبئ تحته فحسب؟“.

” هذا أول ما سيخطر على بال أصحاب هذه الذئاب، بأننا جئنا إلى هنا لنختبئ في رائحة هذه الجثة، لذلك فعلينا التمرغ بها، ثم حمل شيء منها معنا

ونكمل هربنا، ثم نتمرغ بها في موقع آخر بعد عدة آلاف قدم ونختبئ هناك".

" إنني أزداد كرهًا لك ولأفكارك مع كل كلمة تنطق بها".

أخرجت خنجري، وشققت بطن الدب لتخرج من بطنه روائح لم أعلم أنها خلقت من قبل، فغرفت منها قبضة بيدي، ووضعتها في حقيبتي، وكذلك فعل فداء، ثم أخذت قبضة أخرى مسحت بها على صدري، وذراعيَّ، وساقيَّ.

" عليك أن تمرغ حراكًا كذلك بها، ولا تنس أن تحمل كمية إضافية ليتمرغ بها حين نختبئ".

قاوم حراك بعصبة متهربًا من يد فداء، إلا أنه رضخ في نهاية، وسمح لفداء بأن يمسح على جسده من تلك المادة النتنة، وانطلق بعدها، ولكن ببطء؛ فالرائحة التي غطينا بها أنفسنا أضعفت حاسة الشم لدى حراك وفداء؛ مضعفة بذلك قدرتهما على التحرك في هذا الظلام، كان قطيع الذئاب يقترب منا بسرعة، ثم توقفت لبرهة من الزمن، لابد وأنها قد وصلت إلى جثة الدب، ثم عاودت الاقتراب منا. حين أصبحوا على بعد ألف قدم، أشرت لفداء بأن يختبئ كل منا بعيدًا عن الآخر لنقلل من فرص اكتشافهم لنا. أخرجنا ما حملنا من رائحة وتمرغنا بها، ثم جعل فداء حراكًا يستلقي تحت إحدى الشجيرات وغطاه بأغصان وأوراق شجر، وانتقل بعدها إلى شجية أخرى واختبئ وكذلك فعلت.

سمعنا صوت الذئاب وهي تمر بجوارنا، إلا أنها هدأت من حركتها حين وصلت إلى موقعنا.

" لقد فقدوا أثرهم، لابد وأنهم قد غيروا وجهتهم شرقًا مجددًا".

" فلنبحث في هذا الموقع أولا، فقد يكونون مختبئين هنا في مكان ما".

" هذا ما قلته عند تلك الجثة العفنة، لقد أضعت وقتنا، وتسببت في أن نفقد أثرهم بعد أن كنا قاب قوسين أو أدنى منهم، لن نضيع المزيد من الوقت، يجب أن نجدهم قبل أن يخرجوا من هذه الغابة"

" ولكنني متأكد ....."

" قلت لك لن نضيع أي وقت، انطلقوا باتجاه الشرق".

انطلقوا مبتعدين عنا، وظللنا حيث نحن مختبئون خوفًا من أن يعودوا أدراجهم، وقد كان الإعياء والتعب قد أخذا منا مأخذهما، فتحايلت علينا أجسادنا لنغفو دون مقاومة.

(9)

خيانة

ظهيرة الخميس السادس والعشرون جماد المتقدم عام 291 س . غ .

غادرت العنقاء لأجد نفسي في ميناء سبتة الذي اكتظ بالسفن الحربية والجنود، فهذه المدينة ليست كأكادير، إذ إنها مدينة عسكرية بحتة، هدفها الرئيسي كما فهمت من أحد البحارة هنا، أن تكون رمزًا لقوة الأسطول العثماني لإرهاب الأوروبيين، وتحديدًا الإسبان. الغريب أنها على عكس أكادير، لا تمتد حصونها إلى داخل البحر، بل هي مكشوفة تمامًا، ولكنها مكدسة بالمدفعيات الموجهة نحو البحر. علمت أن مناوشات كثيرة قد حدثت بين البحرية العثمانية والإسبانية في هذه المنطقة، وأن الإسبان يطلقون قذائف مدفعياتهم نحو كل السفن العثمانية التي تقترب من مدى تلك المدفعيات في تحدٍّ، وذلك هو السبب الرئيسي في تحرك العنقاء مساءً في ليلة غير مقمرة؛ إذ إنها ستقترب من مدى تلك المدفعيات في طريقها إلى ميناء أوستيا.

جبل طارق هناك، عبر هذا البحر، لدي تسعة أيام لأزور الجبل وأصل إلى قصر الحمراء الذي سمعت عنه الأساطير طيلة حياتي، وأعود مجددًا لألحق بهذه السفينة. أبدلت ثياب الجندي العثماني وأخفيتها في إحدى زوايا هذه المدينة، ولبست ثيابي اليقطينية؛ فهي أريح لي في الحركة وأفضل للقتال إن اضطررت لذلك في إسبانيا. حاولت جاهدًا أن أجد من يعبر بي البحر إلى جبل طارق، إلا أن الجميع كان يرفض حتى مناقشة الفكرة، إلى أن دلني أحدهم إلى تاجر يُقال إنه يعمل في تهريب البضائع العثمانية إلى إسبانيا وبالعكس. وجدت التاجر الذي عرَّف نفسه بأنطوانيو، واتفقت معه على عشرة دنانير ليوصلني إلى الشاطئ الإسباني، ثم يعيدني في ليلة الثلاثاء، الأول من جماد المتأخر، قادني إلى زورقه الذي رفع قاعدته لتظهر مساحة مخفية تكفي لأختبئ بها مع معداتي حتى نصل إلى الشاطئ الآخر. وبعد برهة ليست بقليلة، ارتطم الزورق بشيء ما، أعتقد أنها سفينة، ثم توقف الزورق تمامًا، وسمعت رجل يصيح بلغة غريبة، أعتقد أنها الإسبانية، ثم سمعت أنطوانيو يرد عليه ويدخل معه في محادثة قبل أن يتحرك الزورق مجددًا ليتوقف بعدها بلحظات. انتظرت في مكاني حتى يخرجني أنطوانيو، وفجأة وبلا مقدمات! فُتح سقف الصندوق الذي اختبأت به لأجد أمامي مجموعة من الجنود الإسبان وقد شهروا أسلحتهم؛ ليرفعني أحدهم من تلبيبي ويلقيني خارج الزورق وهو يصيح بكلمات لا أفهمها. حاولت النهوض، إلا أن أحدهم ضربني برجله على ظهري ليعيدني منبطحًا على الأرض، ثم ظهرت أمامي قدمان، رفعت رأسي لأرى وجه صاحبهما، فإذا به أنطوانيو وبجانبه يقف إسبانيٌّ يبدو من نظراته بأنه المسؤول هنا.

" ما جاء بك إلى هنا؟" قالها الرجل بعربية صحيحة.

" سيدي بيدرو دوق مدينة صيدا، إنه جاسوس عثماني، فقد رأيته وهو ينزل من العنقاء بزيه العثماني قبل أن يأتيني بهذه الملابس الغريبة ليطلب مني نقله إلى هنا".

" ما اسمه؟".

" لم أسأله سيدي حتى لا أثير شكوكه، لكن متاعه في الزورق".

أشار بيدرو لجنوده ليخرجوا متاعي من الزورق، ثم تكلم بتلك اللغة الغريبة بصرامة؛ فقام أحدهم بربط يديَّ خلف ظهري، ثم رفعني بقسوة لأقف على قدميَّ ويدفعني أمامه. توقفت من هيبة المنظر أمامي، فقد امتلأ الأفق بجبل طارق كأنه جدار صنع من لؤلؤ أبيض، كانت مشاعر الحزن التي ملأت أحجاره يتردد صداها بين أضلعي، لم أتمالك نفسي؛ فذرفت عيناي دمعًا من قوة تلك المشاعر، ضربني الجندي على ظهري ليدفعني للأمام حتى وصلنا إلى مبنى حجري صنع من نفس أحجار الجبل؛ ما جعله يبدو كجزءٍ منه. وصلت إلى غرفة بقرب مدخل المبنى، حيث جلس بيدرو خلف مكتب فاره لا يقارن بالمكتب الذي لدى عنترة، فهذا المكتب يلمع كأنما طلي بالأمس، وسطحه الخشبي أملس، لا تشوبه أي خدوش ولا كسور، وبجواره وقف أنطوانيو، تناثرت على الأرض حاجياتي التي كنت أحمل في متاعي، بينما توسط الغرفة كرسي حديدي، أرغمني الجندي على الجلوس عليه، ثم ربط يديَّ به. أشار القائد للجندي بالخروج.

" لماذا أرسلك الأتراك إلى هنا؟".

" لست من الترك، ولست لهم جاسوسًا".

" بل أنت جاسوس حقير يا" ، ثم نظر إلى ورقة على مكتبه، وقال وهو ينظر إلى عينيَّ مباشرة وبتركيز واضح على كل حرف " عبد القدير بن محمد الهوزالي".

" هذا ليس اسمي، فأنا الباز المنقض".

" محاولة فاشلة، إذا لم يكن هذا اسمك فلم تحمل هذه الوثيقة؟ ما لا أفهمه هو لماذا أرسلك الترك؟ لقد أمسكت بالعديد من جواسيسهم من قبل، ولكنك أول جاسوس يصلني بهذه المكانة المرموقة". قالها دون أن يرفع عينيه من عينيَّ.

لم أفهم ما يقصده بالمكانة المرموقة، وبدت ملامح الاستغراب على وجهي، فأكمل قائلا:

" أتظن أنني لا أعرف من تكون؟ أنت ابن العلامة محمد بن علي أكبيل الهوزالي، كبار علماء القرآن في بلادكم، فأن يرسل الترك ابنه إلى بلادنا لابد وأن تكون مهمتك أكبر بكثير من مجرد جاسوس".

" قلت لك لست هو، فأنا .....".

لم أستطع إكمال جملتي إذ ارتطمت قبضته بفكي بقوة هائلة كادت أن تكسره وتخرجه عن مكانه.

" كما تعلم، نحن شعب عفيف ولا نحب الكذب". ثم أشار إلى أنطوانيو بإصبعه وهو يكمل: " ولذلك فقد تفننا في صنع الآلات التي تجبر الأشقياء على قول الحقيقة".

فتح أنطوانيو ضلفات الكبائن التي تراصت على الجدار الخلفي لتظهر داخلها أدوات حديدية مختلفة الأحجام والأشكال، كان القاسم المشترك بينها جميعًا، أن بها طرفًا أو أكثر حادًّا أو مدببًا. دبت رعشة في جسدي، فبالرغم من أنني فهمت تمامًا ما تستخدم له هذه الأدوات، إلا أنني لم أتخيل أبدًا أو أسمع بأن يفكر بشر بإيذاء غيره بهذه الطريقة. تحولت نظراته إلى نظرات وحشية وهو يقول:

" لا تتعجل، فنحن لسنا بهذه الوحشية، سنقوم أولا بضربك بالأيدي" وارتطمت قبضته بفكي من الجهة الأخرى؛ فشعرت بدوار بصقت بعده دمًا.

" ها أنت ذا تظهر همجيتك التركية، كيف تجرؤ على أن تبصق على أرضية مكتبي؟" ثم ضربتني قبضته في أسفل صدري لأصيح من ألم الضربة.

" الآن، دعني أسألك مجددًا، من أنت؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟".

" قلت لك، أنا الباز المنقض ابن الذئب الحكيم، شيخ قبيلة شيروكة".

نظر نحو أنطوانيو: " هل سمعت باسم كهذا من قبل؟ كنا دومًا نعلم أن الأتراك همجيون، أما الآن فقد تأكدت بأنهم حيوانات". تلاها بركلة من قدمه في صدري؛ تسببت بسقوطي على ظهري.

سمعت خطوات تقترب، ثم رأيت وجه أنطوانيو، وقد بدا عليه التوتر واضحًا وهو ينحني ليرفع كرسيَّ.

" لنحاول من جديد، من أنت؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟".

تأوَّهت من الألم، وعلمت أنه لا مخرج لي من هذا المأزق سوى مجاراة هذا المجنون، والكذب عليه بما يريد سماعه:

" أنت تعلم من أنا، وقد أتيت لأعيد الأندلس لأهلها".

قهقه بصوت ساخر تردد صداه في أرجاء الغرفة:

" تعيد الأندلس؟ لأهلها؟ ألم تعلم أن أهلها هم من سلموها للعرش الإسباني؟ أراك متعجبًا، نعم لقد سلم جدي مدينة طريفة للعرش، لم تعدْ أندلساً، إنها إسبانيا الآن، قل لي، كيف لك أن تعيدها؟ من هو مخبركم هنا؟".

" لست أدري، كل ما أستطيع قوله إنني يجب أن أكون في قصر الحمراء مساء بعد غد ومعي جميع حاجياتي".

" ممتاز، لقد بدأت تتعلم الصدق، وما سبب مجيئك؟".

" لقد جئت لأعيد تعليم أبناء هذه البلاد أصول دينهم، وأساعدهم على استعادتها من عرشكم".

صفعني بقوة وهو يزمجر بغضب:

" هكذا أنتم أيها الترك، تدسون أنوفكم فيما لا يخصكم، ما دخلكم أنتم وحركات المقاومة لدينا؟ وما هذه الأدوات التي تحملها معك؟" قالها وهو يقلب بقدميه أدواتي المتناثرة حوله على الأرض.

" هذه أحدث ما توصل إليه علماء إسطنبول من أجهزة للتجسس والتأثير على الجماهير، أرسلت معي لأعلم مجموعة من حركة المقاومة على استخدامها".

" أنطوانيو" ثم أكمل حديثه بالإسبانية، وخرج من الغرفة. اقترب من أنطوانيو،

وفك يديَّ من الكرسي بتوتر واضح وهو يتفادى النظر إلى عينيَّ، من الواضح أنه يشعر بتأنيب الضمير، فلا أعتقد أنه كان يتوقع هذه الهمجية من بيدرو.

" هل لي أن أصلي الظهر؟ أعدك بأن أصلي سريعًا، وألا أحاول الفرار".

نظر إليَّ أنطوانيو مترددًا:

" حسنًا، ولكن على عجالة، وأقسم لك لو حاولت خداعي فلن تكون عاقبة ذلك سوى الألم" قالها وهو يُشير إلى الكبائن المفتوحة.

" هل لك أن تفك قيودي؟".

" عليك أن تصلي بهما مكبلتين خلف ظهرك، فأنا لست بأحمق".

وقفت سريعًا، وتوجهت نحو ما أعتقد أنه الجنوب الشرقي، وبدأت في صلاتي، كنت أشعر بأنين جبل طارق، ولكن هذا الأنين بدأ في الخفوت مع كل آية أقرؤها، ومع كل حركة، ومع كل تسبيحة، ومع كل سجدة، وحين انتهيت من صلاتي تحول الأنين إلى شوق ولهفة.

لم أكد أنهي صلاتي حتى سحبني أنطوانيو من قيودي لأقف ويدفعني للخارج؛ حيث سلمني لأحد الجنود الذي جرني بعد أن حدثه أنطوانيو ليلقي بي داخل قفص حديدي على عربة يجرها حصانان ضخمان، وبعد لحظات ظهر بيدرو على ظهر فرسه:

" ستوصلنا إلى مخبرك ليكون عبرة لغيره ممّن يريد الانقلاب على العرش".

ثم أدار فرسه وانطلق، وانطلقت عربتي خلفه، ومع انطلاقتها شعرت بحزن جبل طارق يعود مجددًا، ولكنه هذه المرة قد اختلط بالغضب.

□□□□□□□□□□

قد يبدو لكم ما سأقوله الآن جنونًا، ولكنني وبالرغم من أنني الآن مكبل في قفص حديدي، وفي وجهي بضعة جروح ورضوض، فقد كنت سعيدًا، نعم كنت سعيدًا جدًّا؛ فأنا الآن في طريقي إلى غرناطة، أنا في طريقي إلى نقطة البداية، هنالك مسقط رأس والدتي، ومن هناك جاءنا الموريون هاربين بدينهم، من هناك سآتي بالدليل الذي سينهي الفتنة في يقطينيا لنعود أسرة واحدة، غرناطة كانت مجرد أسطورة، مجرد اسم ارتبط به تاريخنا، مع أننا لم نرها أبدًا، وغدًا سأكون أول يقطيني يراها. كنت منشغلا بأفكاري وخيالاتي، فلم أتنبه إلى توقف العربة المفاجئ؛ فارتطم رأسي بقضبان القفص الذي نسيت أنني بداخله. جلت ببصري لأتفقد المكان من حولي، كنا على ممر ممهد داخل غابة كثيفة، وقد بدأ الظلام يخيم على المكان. يبدو أنني قد سرحت لفترة طويلة ولم أشعر بشيء من حولي، إذ يبدو أن عددًا من الجنود قد انضموا إلى مسيرتنا؛ فأصبحنا أشبه بالقافلة. كانوا الآن يتحركون في كل اتجاه، أتوقع أنهم يتأكدون من أمن هذا المكان قبل أن يخيموا به الليلة. بعد دقائق، عادوا وهم يشيرون بأيديهم بإشارة اتضح أنها تعني بأن المكان آمن؛ إذ تحرك باقي الجنود ليجهزوا المخيم ويشعلوا النيران. ومع اشتعال أولها، تفاجئت ببيدرو واقفًا أمامي مباشرة:

” سنبقى هنا الليلة، أمرت جنودي بإطلاق سهامهم على قلبك مباشرة إذا حاولت الهرب، فأرجو ألا تحاول ذلك؛ ففراقك سيحزنني جدًّا“. قالها ولم يستطع تمالك نفسه من الضحك بهستيرية، ثم جلس قرب إحدى النيران المشتعلة.

(10)

منطق الطير

الخميس الأول من صفر عام *289* *(س . غ)*

كنت أحوم بتوتر حول أحد الأشجار في زاوية ساحة قرطبة الرئيسية منهمكًا في التفكير فيما ينتظرني، بينما وقف أخواي الكواسر عَوْقَب وشاهين على أغصانها يراقبانني، يبدو منظرهما للمراقب غريبًا جدًّا، فعَوْقَب أعظم عُقاب رأيته في حياتي يناهز حجمه النعجة الكبيرة، ويمتد جناحاه لأكثر من أربع أذرع حين يبسطهما، بينما لم يكبر شاهين كثيرًا عن حجمه الذي وجدته عليه يوم سقط من عشه فلا يكاد يتجاوز حجم هرة صغيرة، ولا يزيد امتداد جناحيه عن الأربعة أشبار. لقد بدأت الساحة تزدحم بالناس، لم أكن أتوقع هذا نهائيًّا، كنت أتوقع أن يكون حدثًا عاديًّا مثله مثل باقي العروض التي يقدمها أي مجاز، ولكن يبدو أنني قد تورطت حين قبلت اقتراح فداء بأن نقدم عرضنا سوية، لابد وأن الجميع هنا ليشاهد ابن الخليفة. أفقت من أفكاري لألتفت بسرعة دون وعي مني، وأمسك بقبضة قد انطلقت نحوي.

" لماذا كل هذا التوتر يا باز؟ فها أنت قد تمكنت من التنبؤ بقبضتي بالرغم من أنك كنت غارقًا في أفكارك تمامًا، لو أن أداءك اليوم بنصف هذه المهارة لأجزت بكل تأكيد". قالها فداء بمرح.

" لم أتنبأ بقبضتك بل حذرني شاهين، وأنا لست متوترًا من العرض، ولكنني كما تعلم لست مثلك في حب الاستعراض".

فتح فداء فاه ليجيبني بأحد الحكم التي يتلقاها يوميًّا من معلميه، ولكن نداء البدء الذي تردد صداه في أرجاء الساحة استوقفه للحظة قبل أن يقول:

" لا تلقِ بالا للجماهير؛ فقد راجعنا وتدربنا على هذا كثيرًا خلال الأسابيع الماضية" ثمَ نظر إلى أعلى وهو يقول: " قولا له إنه لا داعي للقلق".

" أنت تعلم أنهما لن يفهما شيئًا مما تقول".

هز رأسه بلا مبالاة وهو يتوجه نحو منتصف الساحة يتبعه حراك وهاكوم، تبعتهم، فهبط شاهين على كتفي، بينما حلق عَوْقَب عاليًا ليحوم حول الساحة وهو يراقبني.

وقف فداء مواجهًا المنصة ومن خلفه حراك وهاكوم، ووقفت أنا على يمينه، جلس على المنصة مجموعة من كبار مشائخ يقطينيا، شيخي صقر الأكابر، وإلى جواره معلمي قتابة الأندلسي، أحد أشهر مقاتلي يقطينيا، ثم المثنى قائد الجيوش، ثم شيخ فداء وقد نسيت اسمه الآن، ولكنه وبلا منازع أفضل مشائخ توتم الغزال، وقد هاجر من قريته في أقاصي شمال غرب يقطينيا حين علم بتوتم ابن الخليفة ليعلمه بنفسه، ثم الشيخ شامخ بن وديان الكاموهي، شيخ توتم الجبال في قرطبة ومعهم ثلاثة شيوخ آخرين لا أعرفهم، ولكنني أجزم بأنهم مشائخ آخرون من نفس التواتم ليبدوا آراءهم لمشائخنا حيال ما سنقدمه لهم.

ساد الصمت أرجاء الساحة للحظات قبل أن يتقدم الشيخ صقر:

" إخواني وأخواتي اليقطينيين، حضرات المشائخ الفضلاء، السلام عليكم

ورحمة الله وبركاته، لقد تشرفت في الأشهر الماضية بأن يتتلمذ عندي أحد ألمع أبناء توتم الكواسر، وكذلك تشرف أخي شيخ توتم الغزال بتلميذه ليس فقط لنسبه، ولكن كذلك لبراعته منقطعة النظير، وإنه لشرف كبير لي أن أرحب بكم اليوم لمشاهدة ما قد أعداه لنا، فنحن هنا اليوم إيجابًا لطلبهما بالحصول على الإجازات التالية: إجازة الكواسر، وإجازة فنون القتال والفروسية وإجازة الجبال للباز المنقض، وإجازة الغزلان، وإجازة فنون القتال والفروسية لفداء الدين".

توقف الشيخ عن الحديث لبرهة وهو يتفحص الحضور قبل أن يتابع: " وأجزم من أعداد الحضور اليوم بأن غالبيتكم يعلم كم هي نادرة أن يطلب شخصان بأن يتقدما بعرض واحد للحصول على إجازتهما، ولا سيما أنهما من توتمين مختلفين، ولكنها كذلك أول طلب إجازة يجمع فيه شخص أكثر من إجازة في نفس العرض، ولم يسبق في تاريخ إجازات التواتم أن يحاول شخص الحصول على إجازة توتمين مختلفين في نفس العرض، كما أنه لم يحدث أن حصل أحد على إجازة في توتمين، ولا تنتهي مفاجأتهما هنا، فكما تعلمون جميعًا، فإن عروض إجازات التواتم دائمًا ما تكون في مناطق الطبيعة والمساحات المفتوحة، وهذا هو أول عرض أسمع به داخل ساحات إحدى المدن؛ لذلك أطلب من الباز وفداء بأن يبدآ عرضهما، فأنا أكاد أن أخفي تشوقي له".

ساد السكون من جديد، ومضى الوقت بطيئًا قبل أن يلكزني فداء بكوعه.

" مشائخي الكرام" ثم التفت من حولي: " إخواني وأخواتي، اليوم وبرغبة منا بأن يتكرم مشائخنا علينا بمنحنا الإجازات التي طلبناها سنقدم لكم عرضًا ليظهر مدى تمكننا من كل المهارات اللازمة لتلك الإجازات، ولكننا اليوم لن نستعرض مهاراتنا في التعامل مع تواتمنا بالطرق التقليدية التي اعتدتم جميعًا عليها في العقود الماضية؛ حيث يستخدم التواتم في حالتي مثلا للتقصي أو المراقبة، بل سنستعرض كيف يمكننا أخذ تلك العلاقة إلى مستوى أكثر تعقيدًا" ثم التفت نحو المثنى: " هل لي بأن أقاتل أفضل جنودك؟".

أومئ برأسه قبل أن يشير بيده لأحد الجنود الذين يعملون على حراسة الخليفة، فتقدم ليقف أمامي بكامل عتاده.

" هل لي أن أطلب أن نبدأ بدون أية أسلحة، ولك أن تستعين بتوتمك إن شئت".

خلع الجندي سيفه وخنجره: " وما فائدة التوتم في القتال؟".

" هذا خيار عائد لك، أرجو أن تقاتل بكل ما أوتيت من قوة وقدرة".

وقف الجندي يتأهب للقتال وقد تشبث نظره بعينيَّ قبل أن ينطلق نحوي بخطوات سريعة، واعتصر قبضته بقوة، لم أتحرك من مكاني حتى أصبح على بعد خطوة مني وقبضته تنطلق كالشهاب نحوي، ليفاجأ بعَوْقَب يسقط من السماء أمام وجهه مباشرة بجناحيه الممتدين؛ فاختل توازنه حين لم تصب قبضته المنطلقة هدفها بعد أن تنحيت جانبًا لأضرب ظهره بقبضتي فيسقط أرضًا.

" كما ترون؛ فقد استخدمت توتمي لمفاجأة خصمي وإعاقة رؤيته في نفس

الوقت؛ ما تسبب في أن يقوم خصمي بإكمال هجمته وكذلك فقد تركيزه حين لم يصب هدفه المتوقع".

تعالت أصوات الجمهور وهم يصفقون، ساعدت الجندي في الوقوف مجددًا، ثم أشرت له بالهجوم مجددًا فأومأ لي بالرفض، وأشار لي بأن أبدأ أنا. تقدمت منه بخطى بطيئة واثقة، بينما تشابكت نظراتنا، تسارعت خطواتي شيئًا فشيئًا حتى أصبحت قاب قوسين أو أدنى، ورفعت قبضتي اليسرى، ثم اعترض جناحا عَوْقَب نظراتنا لأخطو إلى يميني في لحظة ارتباك الجندي، ولم يكد يرى أمامه، للحظة خاطفة اكتشف فيها بأنني لم أعد أمامه قبل أن يحجب نظره جناحا شاهين ليفاجأ بعدها بقبضتي اليمنى وقد التصقت بجانبه الأيسر.

" إن تثبيت النظر في عيني الخصم يتسبب له في حيرة وارتباك حين ينقطع ذلك الاتصال بسبب أي عارض؛ ما يعطيك القدرة على مباغتة خصمك بسهولة".

زمجر الجندي وهو يغرس قدميه في الأرض: " ألا تستطيع مقاتلتي وأنا أراك؟ أتحتاج أن تختبئ خلف أجنحة توتميك؟".

استدرت لأواجهه، كان على بعد خمسة أقدام أو يزيد: " ما رأيك أن نستخدم بعض الأسلحة؟" ، ألقى فداء إلينا بقطع خشبية لها نفس شكل ووزن السيف، فتبسم الجندي بنصف وجهه بعد أن التقط السيف بيده اليمنى، هبط شاهين ليقف على منتصف ذراعي اليسرى، بينما هبط عَوْقَب ليقف على حرملتي خلف رأسي مباشرة. انطلق الجندي نحوي بكل سرعة وشراسة ليطيح بسيفه نحو رأسي بكل عنف. خطوت إلى الخلف بسرعة لأتفادى ضربته، ومع خطوتي ضرب عوقب الهواء بجناحيه ليجذبني بقوة للخلف، في نفس الوقت كنت قد أطلقت العنان لقبضتي اليسرى نحو ذراعه اليمنى التي تحمل السيف، ومع انطلاقتها كان شاهين يرفرف جناحيه بكل عنف ليضيف قوته وسرعته إليها. ارتطمت قبضتي بذراع الجندي؛ فضرخ بألم وارتخت قبضته على سيفه، لم يتوقف شاهين، بل ترك ذراعي ليكمل طائرًا نحو قبضة الجندي ويضربها بمنقاره بكل عنف ليفلت السيف، أكمل شاهين طيرانه بحركة سريعة حول ذراع الجندي ليضرب بقبضة السيف نحو قبضتي، فأمسك به وأنا أكمل دورة كاملة بجسدي حول قدمي اليسرى؛ فأضرب ظهر الجندي بسيفي، بينما أطعنه بسيفه وظهري له. ضجت الساحة بالتصفيق والصياح.

" إن إضافة قوة وحركة توتمي إلى قوتي تعطيني القدرة على القيام بحركات يستحيل عليَّ القيام بها وحدي، إضافة إلى أن تحركاتهم معي تضيف مزايا قتالية لا يتوقعها خصمي، خصوصًا وأنه لم يعلم من قبل أنها ممكنة؛ ما يضيف عامل المفاجأة، كما أن استشعار الحصى من تحتنا يمكنني من معرفة حقيقة وقفة خصمي واتجاه حركته القادمة".

قلبت السيفين في يدي ورفعت مقبضيهما نحو الجندي: " أشكرك يا أخي على هذه المبارزة" ، أخذهما مني قبل أن يقف لي وقفة احترام ويغادر الساحة.

" يكفينا هذا يا باز، تقدم يا فداء وأرنا ما لديك".

وقف فداء أمام المنصة وأومأ برأسه احترامًا، وقف من ورائه حراك بهدوء واحترام، فلم يعد ذلك الأيل الصغير الذي وجدناه في الغابة، إذ يكاد كتفه يصل إلى رأس فداء وقد نمت قرونه لأكثر من ذراع على جانبي رأسه، وإلى جانبه وقف هاكوم بتوتر واضح وهو يضرب الأرض بأقدامه، ويحرك رأسه مع إصدار صوت هدير مزعج؛ ما أضفي عليه هيبة مخيفة، فغزال بحجمه الذي يكاد أن يكون بحجم حراك وخصوصًا وأن قرونه أكبر بكثير ومتشعبة وذات نهايات مدببة حادة، ليس من الكائنات التي ترغب في مواجهتها خصوصًا وهي متوترة بهذا الشكل.

" مشائخي الأفاضل، لن يعتمد عرضي على المفاجأة وخفة الحركة اللتين اعتمد عليهما أخي الباز، وإنما على القوة والمواجهة" ثم نظر في عيني قتابة: " ولذلك؛ فأرجو منك سيدي أن تقدم أفضل ثلاثة مقاتلين لديك لمواجهتي أنا وأخويّ، وأرجو ألا يكونوا من الحرس حتى لا يجدوا حرجًا في البطش بابن الخليفة".

تبسم قائد المثنى، بينما أشار قتابة إلى ثلاثة من تلاميذه، فتوجهوا إلى الساحة، وحاصروا فداء وأخويه.

" هل نقاتل بالأسلحة أم دونها؟".

" أخواك مسلحان، فلا مفر من السلاح لنا جميعًا ليكون القتال عادلا".

أشار فداء إليّ؛ فقدمت سيفًا خشبيًّا لكل منهما، وأصر أحدهما أن يحصل على سيفين، فعدت مجددًا بسيف فداء، وبخوذتي حراك وهاكوم.

" هاتان الخوذتان لحماية قرون أخويّ حتى لا تنكسر عند الجمجمة" قالها فداء موضحًا لخصومه.

" وحفاظًا على الأرواح، فقد أمرت أخويّ بعدم توجيه أي ضربات لأي منكما بقرونهما، لذا فأرجو أن ينسحب من القتال كل من تمسه قرن أحدهم؛ لأنها في قتال حقيقي ستصيبه في مقتل".

انطلق المقاتلون بسيوف مشهرة نحو فداء وأخويه، فزمجر هاكوم، وانطلق نحو أحدهم خافضًا رأسه لينطحه، وما أن اقترب حتى رفع رأسه وهو يميل رقبته بعنف ليلتقط سيف خصمه بقرنه ويقذف به بعيدًا بين المتجمهرين، بينما استمر في اندفاعه نحو خصمه ليصطدم جذع هاكوم بالرجل؛ فيلقي به بضعة أقدام إلى الوراء. وفي تلك الأثناء، كان حراك قد جرد خصمه من سيفه كذلك، ولكن خصمه كان سريع الحركة؛ فتمكن من تفادي الاصطدام به. في تلك الأثناء التحم فداء بالمقاتل الثالث في مبارزة عنيفة وسريعة قد تبدو لأول وهلة غير متكافئة؛ إذ يحمل فداء سيفًا واحدًا بينما كان خصمه ينقض عليه بسيفين، إلا أن فداء كان يتلقى الضربات من كلا السيفين بخفة ومهارة على نصل سيفه ليتبعها أحيانًا بلكمات أو ركلات.

" اتركوا الغزلان، ليهاجم الجميع فداء". قالها وهو ينقض بسيفيه في آن واحد على فداء، دفع حراك قرنه الأيمن ليعترض سيفي المهاجم بينما اعترض هاكوم بجسده طريق أحد المقاتلين اللذين انطلقا لمهاجمة فداء؛ فارتكز فداء على

ظهره ليقفز من فوقه ويهجم على خصمه من السماء فيسقطه أرضًا، ويضرب صدره بسيفه الخشبي. وقف فداء، والتف من خلف هاكوم ليواجه صاحب السيفين الذي هرول نحوه، أشار فداء بأصابع يده اليسرى، فإذا بهاكوم وقد ارتكز على ذراعيه ليضرب بساقيه؛ فتصيب إحداها المقاتل، وتقذف به بعيدًا. انزلق المقاتل الأخير على الأرض من تحت حراك وهاكوم ليقف خلف فداء ويلف ذراعيه حول رقبته وخصره، حاول فداء الإفلات منه دون جدوى، فثنى جسده إلى الأمام بقوة لينقلب ويطيح بخصمه أرضًا، وهو من فوقه مجبر إياه أن يتركه من ألم الصدمة، وما أن تحرك فداء من فوقه حتى سقطت قدما حراك على جانبي المقاتل.

" لو أننا في معركة حقيقية لكانت تلك الحوافر في بطنك أو صدرك".

ماجت الساحة بأصوت صيحات وصفير وتصفيق المتجمهرين. إلى أن أشار لهم قتابة بالهدوء:

" هذا عرض وأداء مبهران، ولكن قولا لي، كيف تمكنتما من تدريب إخوتكم على هذا الأداء القتالي وتنسيق أدائهم مع قتالكما؟".

" ما نتعلمه من مشائخ التواتم، هو كيفية التخاطب مع إخواننا من توتمنا من خلال أصوات معينة تعود جميعها إلى كتاب (منطق الطير) للشيخ كنان بن عبد رب الجبال الآجيبي؛ لنتمكن من خلاله تكوين جمل بسيطة نطقية، ولكن أخي الباز أراد أن يتفاعل مع أخويه؛ بحيث يستطيع نقل أفكار أكثر تعقيدًا وبسرعة أكبر".

" بعد تفحص ودراسة كل ما كُتب عن التواصل مع التواتم، وجدت أن الأساس فيها هو اعتقاد أن التواصل معهم يكون تواصلا صوتيًّا أو في حال الجبال والأشجار اعتقاد أن ما نستشعره منها يمثل كلمات كما اعتدناها نحن البشر باعتبار أن الكلمة المنطوقة هي المقصودة بـ(منطق الطير) ، ولكني ارتأيت أن الأصح هنا هو المنطق الفكري، فالطير وغيره من المخلوقات يرى الكون من حوله بمنظور ومنطق مختلفين عنا نحن البشر، ومن هنا، لو أننا حاولنا التفكير بمنطقهم فسنتمكن من التواصل معهم بشكل أكثر دقة وتعقيدًا، فتمكنت من أخذ كل ما تعلمته من شيخي وتطويره لجعله أكثر تفصيلا وأسرع إلى درجة تكاد تكون مثل توارد الخواطر الذي يحصل بيني وبين فداء حين نقاتل جنبًا إلى جنب، ولهذا أردنا أن نستخدمها في القتال وتناسق الحركات بيننا وبين إخواننا؛ إذ إن مثل هذا التطبيق هو أكبر دليل على فاعلية هذه الفكرة".

تقدم شيخ توتم الغزلان: " لم أكن أتوقع أن يصل أحد يومًا ما إلى هذا المستوى في التخاطب مع إخواننا، وإنه لفخر لي أن ينسب أول من يتمكن من ذلك إلى سند إجازتي، لقد وافقنا على منح فداء الدين بن الوضاء الموري الإجازة في توتم الغزلان، وفي فنون القتال والفروسية، كما وافقنا على منح الباز المنقض ابن الذئب الحكيم الإجازة في توتم الكواسر وفنون القتال والفروسية، أما بالنسبة لإجازة الباز المنقض في توتم الجبال، فبالرغم من انبهار الشيخ

شامخ من أداء الباز وتعجبه من إحساسه بأحجار وحصى الساحة، إلا أنه يعتذر عن منحه الإجازة".

أهداني شيخي خاتم توتم الكواسر، ريشة من الفضة البراقة التفت حول إصبعي، بينما حصل فداء على خاتم توتم الغزلان، قرنان عريضان من الخشب.

تدفقت الجموع نحونا ليباركوا لنا ويناقشوا عنا ما قمنا به في هذا العرض، ومضى الوقت حتى اختفت الحشود من حولنا، فنظر إلى فداء، وقال متعجبًا:

" ما بالك لا تبدو سعيدًا بما حققت اليوم؟ لم يحصل أحد قبلنا على إجازتين في نفس العرض من قبل، أليس هذا سببًا للفخر والاحتفال؟".

" أعتقد ذلك، ولكن لماذا رفض الشيخ شامخ أن يمنحني الإجازة؟ أي دليل أنني لديَّ قدرات توتم الجبال أكثر من قدرتي على استشعار عشرات الأحجار والحصى في نفس الوقت وبسرعة قتالية عالية؟" قلتها وشرد بعدها ذهني وأنا أحمل خطواتي ثقيلة عائدًا إلى منزلي.

(11)

النرخا

ليلة السبت السابع والعشرين من جماد المتقدم عام *291* *(* **س . غ** *)*

كانت السماء تمطر بغزارة حين وصلنا إلى مدينة ساحلية صغيرة؛ حيث توجهنا إلى المركز العسكري في المدينة لنبيت به الليلة. مر بي بيدرو في طريقه إلى مبنى إقامته، وقال باستهزاء:

" أتمنى أن تستمتع بضيافتنا لك هذه الليلة".

ومضى بعدها ليختفي عن نظري. فتح أحد الجند باب القفص الحديدي الذي أمضيت به يوميَّ السابقين، وجرني بعنف من السلسلة التي كُبلت بها يداي لأسقط على وجهي في الطين. تفاجئت بوجه الجندي يسقط أمامي وقد اعترت ملامحه علامات الخوف والألم. نهضت بسرعة؛ لأجد أن سبعة جنود قد سقطوا أرضًا، وأصيب خمسة آخرون بسهام في أجزاء متفرقة من أجسادهم، بينما يحتمي العشرة الباقون بخيولهم أو بالقفص الذي كانوا يحتجزونني به. وبلا مقدمات، ظهر خمسة مقاتلين من طيات الظلام لينقضوا على الجنود وطفقوا ضربًا بالنحور والأعناق، تجمد الجنود الإسبان من المفاجأة فسقط منهم أربعة قتلى، وأصيب ثلاثة آخرون أحدهم بإصابة بليغة، باغتّ أحد الجند بضربة على قفاه بكلتا قبضتيَّ لتصدر السلسلة التي بينهما صوتًا مرعبًا حين ارتطمت برأسه. سحبت سيف أحد الجنود لأنضم إلى القتال، كان القتال بالسيف صعبًا للغاية؛ إذ إنني اضطررت للقبض عليه بكلتا يديَّ المكبلتين ببعضهما، إضافة إلى وزن السلسلة الحديدية التي بينها، والتي أثرت سلبًا على سرعة حركة سيفي، ولكنني على الأقل كنت قادرًا على صد الضربات، وإشغال بعض الجنود عن مهاجميهم لأجعل المعركة أكثر تكافؤًا. لقد كنت منشغلا بالقتال والحفاظ على حياتي لدرجة أنني لا أذكر أي تفاصيل عن القتال نفسه، كل ما أذكره أن القتال توقف بغتة كما بدأ، وقد قتل جميع الجند الإسبان، بينما أصيب أحد مهاجميهم بإصابة بالغة.

" إنتِ بخير؟"

وقفتُ مذهولا حين سمعت تلك الجملة البسيطة بلغة عربية ركيكة، لم يكن الذهول فقط من استخدام اللغة العربية هنا في إسبانيا، ولكن بسبب الصوت الأنثوي الذي قالها. لقد كان أحد المقاتلين امرأة، وأنا لم أتنبه لذلك حتى تلك اللحظة. أعادت جملتها مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت تحمل نبرتها بعضًا من الاهتمام الواضح.

" إنتِ بخير؟ هل أصابتكِ مكروه؟ إنتِ إحتاجي علاج؟".

تبسمتُ من قولها، ورفعتُ يديَّ أمام وجهي:

" لا أحتاج إلى علاج، ولكنني أحتاج إلى فك هذه الأغلال".

" نحنا نيفوكوا أجلال بأدين، الآن نحنا لازم فرار".

" حسنًا، ولكنني أحتاج إلى حاجياتي وأسلحتي" ، وأشرت إلى العربة التي كانت تحمل حاجياتي.

أشارت إلى أحد معاونيها؛ فتحرك معي نحو العربة والتي وجدنا بها بضعة صناديق بالإضافة إلى الصرة التي تحمل متاعي. تحدث المعاون معها بالإسبانية؛ فتبسمت ثم أشارت إلى الرجلين المتبقيين، وأمرتهما بحمل المصاب إلى العربة.

" سنأخز العربة كلها إزا، فيها أموال الدوق ومتاعه".

صعدت بعدها إلى مقدمة العربة؛ فتبعتها بينما صعد الباقون في الخلف مع الأمتعة. فضربت بكرباجها على الأحصنة لتنطلق مبتعدة.

□□□□□□□□□□

يبدو أن الباز قد تعمد كتابة حديث هؤلاء الإسبان كما نطقوه بلغتهم العربية الركيكة، ولكنني سأنقلها لكم بالعربية السليمة حتى لا تختلط عليكم الأحداث .

□□□□□□□□□□

توقفنا لترفع العصبة التي أحاطتها بعينيَّ خوفًا من أن أعرف الطريق إلى حيث تأخذني، وجدت نفسي عند مدخل كهف ضيق لا يكاد يُرى لمن لا يعرفه، وقام الرجال بحمل زميلهم المصاب إلى داخل الكهف، بينما خرج آخرون تحدثوا قليلا مع المرأة قبل أن يقوموا بحمل الصناديق وصرتي إلى الداخل كذلك، قامت المرأة بضرب الخيول لتنطلق بعيدًا في وسط الغابة.

" سنبقى هنا الليلة، قليل هم من يعرفون مكان هذا الكهف ومعظمهم ينتمون إلى جماعتنا".

" أشكركم على إنقاذي، هل لي أن أتشرف بمعرفة اسمك؟".

" أنا سارا، ونحن من أبناء المقاومة، لقد علمنا من مخبرنا أنهم قد أمسكوا بجاسوس عثماني رفيع المستوى فأتينا لإنقاذك".

" أنا لست جاسوسًا عثمانيًّا، أن يقطيني".

" يقطيني؟ لم أسمع بهذه البلاد من قبل، هل أنتم من حلفاء العثمانيين؟ لست أفهم، لقد قال المخبر بأنك عبد القدير بن محمد الهوزالي".

" لست عبد القدير، هل تسمحين أن نحتمي من هذه الأمطار بكهفكم حيث أكمل لك شرح هذا الموقف؟".

" بكل تأكيد، تفضل" وهي تشير بحركة مسرحية نحو الكهف.

اضطررت أن أنحني لأدخل من ذلك المدخل الضيق؛ لأقف مشدوهًا من روعة وجمال ما رأيت، تدلت من سقف الكهف أعمدة من حجر، كأنه شمع قد تجمد بعد انصهاره، وزاده جمالا ورهبة تموج ضوء النيران المشتعلة من حوله.

" هذا كان شعوري حينما رأيتها لأول مرة، ما أروع إبداع الخالق!".

" لم أرَ أو أسمع بشيء كهذا من قبل".

" هذا مخبأنا حيث نجتمع، سآخذك في جولة بعد أن تلقى قائدنا وتشرح له مهمتك، فهو ينتظرك بفارغ الصبر".

قادتني في ممرات الكهف، وأنا أجول بنظري منبهرًا بجمال هذا الكهف

وتراكيبه، إلى أن توقفت أمام أحد جران الكهف بدهشة بالغة.
" هذه تشبه الرسومات الموجودة في كهوف يقطينيا، وقد رسمها أجدادي هناك قبل آلاف السنين، كيف يعقل هذا التشابه؟!".
" هذه الكهوف مليئة بعشرات الرسومات بأشكال ومهارات متفاوتة، لقد اقتربنا من حجرة ديفيد، هيا بنا فهو في انتظارك".
وصلنا إلى حجرة ضيقة في أحد أطراف الكهف، وفي أحد أطرافها مفرش يرقد عليه شيخ كبير. تنحنحت سارا قبل أن تلقي عليه السلام وتساعده على الجلوس وهي تهمس بأذنه.
" أأنت عبد القدير بن محمد الهوزالي؟".
" لا يا شيخنا، أنا لست هو، أنا الباز المنقض ابن الذئب الحكيم، شيخ قبيلة شيروكة، إحدى قبائل يقطينيا".
" أنا شيخ كبير، ولي دراية بمناطق وقبائل الدولة العثمانية بأسرها، ومع ذلك لم أسمع بيقطينيا ولا بقبيلة شيروكة من قبل".
" لسنا تبعًا للدولة العثمانية ولا علاقة لنا بهم".
" فلماذا إذًا تحمل أوراقهم؟ ولماذا احتجزك الدوق بيدرو؟".
" تلك قصة طويلة".
" لدينا الوقت، فلن يذهب أحد إلى أي مكان في هذه الأمطار الغزيرة".
" كل ما أستطيع إخبارك به أنني في مهمة لتوثيق ما يحدث في الأندلس والدولة العثمانية، وأن مهمتي بالغة الأهمية، وقد تعني الحياة أو الموت للآلاف من أبناء وطني".
" ما الذي تعنيه بكلمة توثيق؟ هل تدون أقوالنا وأفعالنا؟ ولمن تنقلها؟".
" أتسمح لي بأن أريك؟ فذلك أسهل بكثير من أن أخبرك".
أشار لي بالموافقة، فنظرت نحو سارا وقلت لها:
" أتسمحين لي بإحضار حاجياتي؟".
" بل تذهب هي وتبقى أنت هنا" وأشار لها، فخرجت من الحجرة.
" قل لي يا باز، أين تقع يقطينيا؟"
" اعذرني يا شيخي؛ فقد حفظ سر مكانها عنكم ما يقرب الثلاثة قرون، ولا أستطيع البوح بمكانها لأحد".
" تعني أنها قد أخفيت عنا منذ سقوط غرناطة؟ لقد سمعت أبي يحكي عن أسطورة هروب مجموعة من الأندلسيين إلى بلاد عامرة بالخيرات عبر بحر الظلمات، وبأنهم سيعودون يومًا ليرفعوا هذا البلاء عنا، أكان يقصد يقطينيا؟ لقد ظننت أنها مجرد قصة نحكيها لأطفالنا عند نومهم لنغرس في قلوبهم الأمل".
" أتسمح أن نكمل هذا النقاش حينما تعود سارا بأدواتي لأوثق كل ما يقال هنا"
" إذا كنت ترغب في تدوينه فهاك قلم وحبر وورق" ورفع لي مجموعة من الأوراق المتناثرة حوله، وأشار إلى محبرة في أحد أطراف الحجرة.

" ليس هذا ما أقصد، قلت لك سيتضح الأمر حين ترى أدواتي وكيف تعمل".
" حسنًا يا بني، سأنتظر؛ فقد أثرت فضولي لرؤية هذه الأدوات".
مضت الدقائق ببطء، وأنا وديفيد نرمق بعضنا دون كلام في انتظار عودة سارا. وما أن وصلت بالصرة حتى أخذتها منها لأقلب بها حتى أخرجت الحاكي منها، بالإضافة إلى عدة أعمدة خشبية وبكرة خيط حريري. أدخلت أحد الأعمدة داخل الحاكي، بينما ثبت طرف الخيط بأحد طرفي العامود، وعلقت البكرة على حامل لها في الحاكي، أدرت مقبض الحاكي بضع مرات تكفي لحياكة ساعة أو أقل بقليل من الحديث. ثم وضعت الحاكي أمام الشيخ ديفيد.
" سيقوم هذا الحاكي بحياكة أصواتنا على هذا العامود لنستطيع سماعها بعد ذلك في أي وقت".
" أتهزأ بي؟! كيف لخيط حريري وعامود خشبي أن يحتفظا بأصواتنا؟!".
" جرب. سآمره أن يبدأ بالحياكة ثم نتحدث، وبعدها سأجعله يعيد عليك كل ما قلناه" ، ثم قمت بالضغط على أزرار الحياكة ليبدأ العامود بالدوران ليحيك الخيط حوله.
" قل لي يا شيخ ديفيد، من أنتم؟ وماذا تفعلون هنا؟".
" نحن المقاومة الإسلامية في إسبانيا، أحفاد الأندلسيين الذين حكموا هذه البلاد تحت راية التوحيد قبل ثلاثة قرون وأكثر".
" وماذا تذكر من القصص التي حكاها لكم أجدادكم عن تلك الحقبة؟".
" كما قلت لك سابقًا، فهناك قصة أسطورية تروي الأحداث بطريقة مختلفة عما يتداوله الإسبان، تقول تلك القصة بأن الزغابي لم يعزل يومًا أباه، وأن أباه قد وضعه مكانه، بينما ذهب ليجد أرضًا آمنة، وقد عاد بعدها بعام ليجد ابنه وقد أسر، فعاد إلى حكم غرناطة لثلاث سنوات، بعد ذلك عمل فيها مع باقي الممالك على نقل أعداد من سكان الأندلس إلى أرض جيدة قد اكتشفها، انتقل هو إلى تلك البلاد، بينما حكم أخوه لعامين آخرين قبل أن يرسل لابن أخيه سرًّا بأن يوافق على شروط الإسبان لفك أسره ويعود لحكم غرناطة، أمضى الزغابي خمس سنوات بعد ذلك في محاولات مستميتة للحفاظ على غرناطة إلى أن سقطت؛ فبكى عليها، وأظهر للإسبان بأنه راحل إلى المغرب التي انتقل بعدها سرًّا إلى الأرض التي وجدها أبوه".
ضغطت على أزرار التوقف، ثم أخرجت من الصرة زجاجة بها صمغ سائل بلون العسل، قصصت الخيط، وثبت طرفه على العامود، ثم أخذت العامود من الحاكي لأغمسه في الصمغ، ورفعته ليقطر فائض الصمغ في الزجاجة، بعد ذلك جعلت أهز العامود حتى تجمد الصمغ تمامًا. أعدت العامود في مكانه على الحاكي، وأخرجت أنبوبًا من الصرة ثبته بفتحة في جانب الحاكي. قربت الأنبوب من الشيخ ديفيد:
" ضع هذا الأنبوب في أذنك".
أخذ الشيخ الحاكي، ووضع طرف الأنبوب في أذنه، فقمت بضغط أزرار الصدى

ليبدأ العامود بالدوران، واكتسى وجه ديفيد بالرهبة، كاد أن يلقي بالحاكي بعيدًا قبل أن يخرج الأنبوب من أذنه ويمد يده بالحاكي لسارا التي أخذته منه لتقوم بالمثل، ولم تكن دهشتها أقل وضوحًا على وجهها منه.

" أي سحر هذا؟! كيف لآلة من معدن وقضيب من خشب حيك بخيط حرير أن يحفظ أصواتنا ويعيد صداها؟!".

" يطول شرح ذلك، ولكنني أؤكد لك بأنه ليس بسحر ولا جن، إنه علم مبني على ما وضعه الله من سنن في كونه".

ثم أخرجت الصائد من صرتي، ووجهته نحو الشيخ، وضغطت على البخاخ. أخرجت القماشة التي به وناولتها للشيخ. لم تكد عيناه ترى الظليلة حتى دمعتا.

" كيف؟ هذه ليست مرآة، كيف لقماشة أن تعكس صورتي؟".

" إنها لا تعكس صورة، لقد اصطادت ظلالك، لو نظرت سارا إليها الآن لرأت ظلالك أنت وليس صورتها".

اختطفت سارا القماشة من يد ديفيد، وما أن رأت ما عليها حتى وضعت كفها على فمها في دهشة، وجعلت تدير نظرها بين ديفيد وبين القماشة.

" هذا مستحيل، كيف فعلت ذلك؟!".

" لقد تقدمت العلوم كثيرًا في يقطينيا، وسأعلمكم كيف تصنعون هذه الأدوات بشرط أن تساعدوني على الوصول إلى قصر الحمراء".

" وما حاجتنا في مثل هذه الأدوات؟ كيف تساعدنا هذه في مقاومة الإسبان؟"

" أولا، ستساعدكم على توثيق كل ما تعرفونه عن الأندلس وقصص أجدادكم قبل أن تُنسى، ليجدها أبناؤكم ويتوارثوها، بالإضافة إلى حفظ وجوه المشاركين في هذه المقاومة لتتذكروهم".

" وثانيًا؟"

" ثانيًا، ستمكن هذه المعدات عسسكم من اصطياد ظلال المواقع التي تراقبونها؛ ما يساعد قادتكم على فهم الموقف أكثر بكثير من التقارير المكتوبة أو المنقولة شفهيًّا، كما يقول أحد حكمائنا، فالظليلة تغني عن ألف بيت، أما الحاكي فإذا تمكن أحدكم من إخفائه في مكتب أحد القادة فقد يستطيع حياكة ما يقال هناك لتسمعوه لاحقًا".

تبادل ديفيد وسارا النظرات، ثم قالت:

" حسنًا، سنساعدك".

" لدي أربع ليالٍ ومثلهن من الأيام لأعود إلى العنقاء في سبتة".

" نحتاج ليوم لنصل إلى غرناطة، وثلاثة أيام لتعود إلى جبل طارق، فمتى ستعلمنا كيف صناعة واستخدام هذه الأدوات؟".

" سنبدأ في الحال، وسأعلمكم في الطريق وفي كل ليلة".

" ولكن هذا الوقت غير كافٍ، يجب أن تبقى لعدة أيام إضافية".

" لا أملك الوقت، يجب أن أعود قبل أن تبحر العنقاء، فهل ستساعدونني أم

أمضي وحدي؟".
بدا التردد على وجهها، ثم زفرت زفرة حانقة:
" حسنًا، ما باليد حيلة، ما هي المهارات التي تحتاجها لأجمع لك من يتعلم منك؟".
" الخيمياء، وصناعة المناظير، وصناعة الساعات".
" لدينا هنا بالكهف اثنان، خيميائي وصانع مناظير، أما صانع الساعات فيمكننا أن نلقاه في غرناطة، وسأنضم أنا إليكم كذلك".
" طلب أخير، قبل أن نبدأ".
زفرت في ملل واضح: " مازا بعد؟".
" صراحة هما طلبان، الأول: أحتاج أن أقضي حاجتي، فأين لي ذلك في هذا الكهف، والثاني: أنني جائع جدًّا فهل لي ببعض من الطعام؟".
تبسمت باستحياء من فظاظة تعاملها مع:
" هههه، بكال تأكيد، تفضل معي سنرتب لك كل شيء".

(12)

الفوج

الأربعاء الرابع والعشرون من المحرم عام *290* ***(س . غ)***

وصلنا صباح هذا اليوم إلى قرية العيون الحمئة لنلتقي بجيش الخليفة الذي وصل إليها منذ البارحة، لقد اجتمع مقاتلون من أكثر من ثلاث وعشرين قبيلة من جميع أنحاء يقطينيا هنا؛ لينضموا إلى لواء الخليفة معلنين بذلك ولائهم للخليفة ورفضهم لمطالب جبل. أسرعت الخطى نحو خيمة الخليفة لأطمئن على وصول شاهين سالمًا ومن ورائي فداء. وما أن وصلنا إلى خيمته حتى أشار لنا أحد الجنديين اللذان يحرسانها:

" لقد أرسل الخليفة في طلبكما، إنه بانتظاركما بالداخل"

عدل فداء من هندامه أثناء دخوله وأنا على أثره، ليتوقف الجميع عن الحديث فجأة.

" حمدًا لله على سلامتكما، لقد أحسنتما صنعًا، فالمعلومات التي جمعتماها كانت مهمة جدًّا" قال الخليفة، فطمئنت نفسي بوصول شاهين بالمعلومات.

كان في الخيمة مشائخ القبائل وأبي بالإضافة إلى قائد الجيش وبضع من أمراء الجيش. أشار الخليفة لقائد الجيش ليبدأ الحديث:

" ما وصلنا من أخبار تفيد بأن جيش جبل يضم من ست إلى تسع قبائل، منهم خمس مؤكدين وهم نافوجة وأباتشة وكمانش وآجيب وشيون، وبحسب تقديرات المعلومات التي وصلتنا من فداء، فإن جيشه يكاد يكون بنصف تعداد جيشنا أو أكثر قليلا، إلا أن عتاده أكثر تقدمًا من عتادنا وتحديدًا فيما يخص الرماة وقدرتهم على التأثير على المعركة من بعيد".

" من الواضح أنه كان يعد لهذه المعركة منذ برهة ليست بالقليلة، ما يؤكد على أن أطماعه في الحكم لم تكن وليدة اللحظة، كيف يجرؤ على فرض نفسه حاكمًا علينا وقد بات واضحًا أن قبائل يقطينيا قد اختارت لنفسها خلافة المور؟ سنسحقه هو وجيشه فلا قبل لهم بأعدادنا" قالها شيخ قبيلة موهاكه بحنق وغضب واضحين.

" لقد تجادلنا في هذا كثيرًا يا إبن طلح، وقد وافقنا جميعًا على أن أخطب في جيش جبل قبل بدء القتال لعل الله يعيدهم أو بعضهم إلى رشدهم فنتجنب إراقة أي دماء، ولكننا هنا الآن لنناقش تقسيمة الجيش ومهام كل قبيلة في المعركة إذا قدر الله لها أن تكون" رد عليه والدي بحزم، ثم أومأ لقائد الجيش بالاستمرار.

" لا نعلم أين سنلتقي جيش جبل بعد، ولكن مما لا شك فيه أنه سيعمل على استخدام تفوقه في الرماية لكسب هذه المعركة، وبالتالي فستكون فرقة رماته خلف خطوط الالتقاء وعلى الأرجح فوق تلة أو جبل قريب، لن نستطيع الوصول إليهم بالطرق التقليدية، لذلك فسنكون فوجًا من عشرة جنود ليتسللوا في الليل قبل بدء المعركة إلى موقع الرماة، أما بالنسبة للمواجهة الأرضية فسنستغل كثرتنا عليه بأن نشتت انتباهه ونهاجمه من عدة جبهات".

" عذرًا، ولكن هل قلت أن فرقة رماة جبل ستواجهها فوج من عشرة جنود؟

من هؤلاء العشرة؟ وكيف لهم أن يواجهوا فرقة بأكملها؟“ سأل فداء باستغراب.
” بالفعل، لقد قلت عشرة جنود، أما بالنسبة لتحديدهم فتلك مهمة عريف الفوج“.
” ومن هو عريف الفوج؟“.
” الباز المنقض الشيروكي“.
ساد الصمت، بينما جعلت أرمش ببلاهة: ” أنا؟!“.
” نعم، فأنت الوحيد القادر على جمع هذا الفوج وتجيهزه لهذه المهمة“.
” وكيف لي أن أفعل ذلك؟“.
” قدراتك القتالية وخصوصًا فيما يخص استخدام توتمك، عليك أن تجد تسعة جنود آخرين من هذا الجيش؛ لتضمهم إلى فوجك وتدربهم على استخدام تواتمهم مثلك“.
” هذا مستحيل، لا يمكنني تدريب أحد على ذلك في أسبوعين، فأنا أحتاج إلى ستة أشهر على الأقل فقط ليتمكنوا من التواصل الكامل مع تواتمهم، ثم بعد ذلك نعمل على تطوير مهاراتهم المشتركة ليصلوا إلى طريقتهم الخاصة في القتال سوية، وهذا يعتمد تمامًا على قدرات كلا من الجندي وتوتمه“.
” ألم تكن لك حلقة لتعليم هذه الأساسيات في قرطبة؟ ابحث بين الجند على من حضروا تلك الحلقة، واختر من بينهم“.
” ولكن تلك الحلقة لم تستمر سوى خمسة أشهر، و...“.
” سنجد فوجك ولن نخذلك“ قاطعني فداء وهو ينظر إليّ بنظرة نارية لأبلع لساني. واستمر بعدها قائد الجيش بتوزيع مهام المعركة القادمة على أقسام الجيش والقبائل.

□□□□□□□□□□

فداء كان متحمسًا جدًّا لهذا الفوج، فهي فرصتنا لإظهار فعالية منهجنا الجديد في التواصل مع الحيوانات، وكذلك إثبات أننا قادرون على تحمل مسؤولية المهام الصعبة. أمضينا الأسبوعين التاليين في البحث عن جنود لفوجي وتدريبه حتى اكتمل عددنا بثمانية رجال وتواتمهم غيري أنا وفداء وتواتمنا، لم أعرف قبيلة أي منهم لأن الخليفة أمر بترك أسماء قبائلنا جانبًا، فنحن جميعًا يقطينيون، صعب بن قضاء مع توتمه الدب فزَّاع، كانا مظهرًا عجيبًا للناظرين، فصعب قصير القامة، عريض المنكبين، صلب البنية، يحمل رمحًا غريبًا قد أضيفت إلى رأسه أربعة مسامير، لم أتمكن من تحديد عمره، يتهامس الجنود عن براعته بسلاحه الغريب حتى إنه قد هزم خمسة جنود في لحظات معدودة، وفزَّاع دب ضخم، ذو فرو بني داكن، لا يكاد رأس صعب يرى من فوق ظهر فزاع وهو على أربع، فما بالك بهم لو وقف فزاع على قدميه. أما عامر بن خلدون فقد كان شابًّا طويل القامة، هزيل الجسد، أجزم من لهجته بأنه من قرية جُدّة على ضفاف بحيرة السلطان في الصحراء الغربية، يملك ليونة وسلاسة في الحركة لم أرَ مثلها قط، مما يجعلني

أتوقع بأنه من سلالة أحد جنود معركة النخيل الأسطوريين، وتوتمه عنكبوت عملاق اسمه شوك، لم أرَ له مثيلا، يحتل حين يقف على ثمانيته مساحة شبر كامل، وحين يغضب يقف على أربع رافعًا الباقيات إلى السماء، يقول إنه تعرف عليه في إحدى رحلاته إلى بلاد الكنانة فوق يقطينيا بعد أن تجاوز أهرامها ونهرها العظيم وَجَدَهُ بين أشجار الموز، يقول بأن سمه يشل حركة الرجل في لحظات معدودة، بالإضافة إلى ذلك، فجسمه يعج بعناكب أخرى كثيرة بأحجام وألوان مختلفة، خامسنا كان صلب ابن الحكم، وهو رجل ضخم بدين، ولكنه مصارع لا يُشق له غبار، وأظن أن فزاعًا وحده قادر على مصارعته، يدعي بأنه يستطيع على الرغم من بدانته هذه أن يُسابق سباحة توتمه التمساح سراب، يبدو سراب من النظرة الأولى أصغر حجمًا من غيره، لكنه يمتلك قدرة غريبة على الاختفاء والتحرك بسرعة في المياه وخصوصًا الضحلة منها ليكون بالفعل سرابًا داخل سراب، سادسنا فهد بن العوام، أكبرنا سنًّا بعمر يناهز الستمائة بدر، قد أكل الشيب معظم رأسه ولحيته الكثة، قدرته المبهرة على التسلق بسرعة على الرغم من عمره تدل على أنه من إحدى القبائل الجبلية، توتمه أسد جبلي، اسمه براق، عظيم السرعة وخفيف الحركة، قد لازمه منذ أكثر من سبع سنوات، شهاب بن بريق النجوم، كان الكاسر الآخر، شابًّا وقورًا يجيد استخدام الخناجر ورمي السكاكين، توتمه بوم شديد السواد يُدعى ليل، لا يمكنك رؤيته في ظلمة الليل خصوصًا إذا أغلق عينيه، ترياق بن عبق المساء، كان طبيبنا، يجيد استخدام السيف، توارث الطب عن أجداده من قبل أن يصل الموريون إلى يقطينيا، وتوتمه عقرب يدعى هود، يلازم سيفه، فإذا لم يصب خصمه السيف أصابه ذيل هود، بدر بن حليم كان رجلا يميزه هدوءه الشديد لدرجة أنك لا تلحظ وجوده في المكان، انطوائي لا يحب التحدث أو الاختلاط بالآخرين، يجيد الرماية بالقوس، وكذلك بالمطلاق؛ لذلك زوده القائد بواحدة من القانصات المعدودة التي حصلوا عليها، توتمه ذئب اسمه ناب، كان على النقيض تمامًا، فهو كثير الحركة والنباح لدرجة الإزعاج، وأخيرًا قابض، لا نعلم له اسمًا آخر، مقاتل محترف بشكل مخيف، أجزم بأنه يتوق لهذه المعركة ليطلق شيطانه الكامن، أكاد أرى تعطشه للدم في بريق عينيه، يتهامس الجنود بقصص عن حياته تقف لها شعر ظهرك، توتمه أفعى اسمها هَسّسْ، لم أرها يومًا غير ملتفة حول ذراعه اليسرى.

□□□□□□□□□□

لقد لفتني وصف الباز لجنود فوجه، أذكر أنني قد قرأت أوصافهم هذه من قبل، ما دفعني للبحث في باقي المخطوطات اليقطينية التي وجدتها، وبالفعل وجدت وثائق أخرى عنهم أو مذكرات بعضهم، سأذكرها لكم في إرسالياتي القادمة.

□□□□□□□□□□

" ما تعلمتموه في حلقاتي كان لمساعدتكم على فهم منطق تواتمكم وبالتالي تعزيز قدراتكم على التواصل معهم، ولكن ذلك وحده لن يمكنكم من استخدامهم في القتال، أغلب الحيوانات بطبعها لا تحبذ الاحتكاك بالبشر ولا مواجهتهم إلى في الحالات القصوى التي يشعر فيها الحيوان بتهديد على سلامته أو سلامة أبنائه أو غذائه ولذلك فهي في أغلب الأحوال ستتجاهل طلباتكم لها بذلك، سنعمل في الأيام القادمة على بناء علاقة الثقة بينكم وبين تواتمكم بالتعمق في منطقهم ما يمكنكم من جعلهم يتخطون ذلك الحاجز عندما تطلبون منهم ذلك؛ لتصلوا بعدها إلى أن يتفاعل توتمكم معكم كامتداد لكم".

" ولكن أليس في ذلك خيانة لتلك الثقة؟" سألني بدر.

" هي كذلك إذا كذبت عليه في هدفك من ذلك الطلب ومدى خطورته عليه".

" ولكن القتال يحتاج إلى سرعة في الحركة، فكيف لنا أن نشرح هدف وخطورة كل طلب لتوتمنا أثناء القتال؟" قالها قابض بتعجب.

" هذا جزء الثقة التي ستبنيها مع توتمك، ففي حالتي مثلا مع شاهين وعوقب، فقد اتفقنا على أن أعطيهم أكبر قدرًا من التفاصيل حين يكون الوقت سانحًا لذلك، ولكنني قد اختصر ذلك إلى تحديد مستوى الخطورة والأهمية فقط حين لا أملك الكثر من الوقت، أما إذا دخلنا في موقف حرج سيقتضي تنفيذ المهام بسرعة فإننا أبلغهم بذلك مع محاولة لتحديد مستوى الخطورة والأهمية في البداية دون أن أكررها مع كل أمر ثم أبلغهم بانتهاء ذلك الموقف".

" وكيف نحدد مدى خطورة الموقف أو الأمر؟ هل هو تقديري بخطورته علي أم عليه؟" سأل فهد وهو يربت على براق.

" هذا يعود إلى مدى تفاهمكما، ولكن كلما زادت المصداقية كلما كانت علاقتكما أقوى، وفي النهاية فهم إخونكم وقد يقوم أحدكما بالتضحية من أجل سلامة الآخر".

" وكيف نصل لذلك المستوى من الثقة مع تواتمنا؟" تعجب عامر.

" هذا يعتمد على توتمك ومنطقه، فكل توتم يبني ثقته ويقيمها بناءاً على معطيات مختلفة عن غيره من التواتم، ولكن مما لا شك فيه أن كذبك على توتمك لجعله ينفذ أمرًا من أوامرك هو الطريق الأكيد لتدمير تلك الثقة كليًّا".

أمضينا الأيام التالية في التدريب كلما توقف الجيش، فليس لدينا الكثير من الوقت قبل أن يضطر فوجي من مواجهة فرقة كاملة بعيدًا عن باقي الجيش.

(13)

قصر الأولين

صباح السبت السابع والعشرين من جماد المتقدم عام *291 (* **س . غ** *)*

استيقظنا باكرًا ذلك الصباح متوجهين إلى غرناطة، سلكنا طرقًا خفية بين أشجار الغابات، وصخور الوديان، لم يكن ذلك أسرع الطرق، ولكنه أكثرها خفية وأقلها استخدامًا من الإسبان وجنودهم. مضى الوقت سريعًا وأنا أشرح لسارا والحرفيين كيفية عمل الصائد، وكيفية بنائه، وكيفية تحضير الفضة السامة، ثم خلطها بمزيج الأملاح والأحماض. كان الحرفيون منبهرين تمامًا بكل ما أشرحه لهم عن الصائد، ولكنني أعتقد أن انبهاري بسارا كان أكبر بكثير من انبهارهم بالصائد، فهي شديدة الفطنة، سريعة الفهم، قوية الملاحظة، خصوصًا حين نتحدث عن الأدوات والبناء والتحضير، فنادرًا ما أجد أنثى تهتم بها، ناهيك على أن تتمكن من فهمها بهذه السرعة.

حين انتصف النهار، استأذن الحرفيون سارا بالعودة إلى النرخا للعمل على البناء والتجهيز لنتمكن من تجربة الصائد غدًا حين نعود من غرناطة. بالإضافة إلى أنهم لا يحبذون اقتحام غرناطة، فخطر أن يضطروا إلى مواجهة جنود العرش الإسباني هناك كبير.

" حدثيني عن الأندلس".

تنهدت بأسى: " يقال بأنها كانت منارة للعالم، ومركزًا للعمل، كانت بلدًا يأوي الجميع، فقوتها كانت في تقبلها، بل حبها للاختلاف والتنوع، وحمايتها لحقوق مواطنيها أيّا كان معتقدهم أو عرقهم، تمكنت من جمع الحضارة من جميع أركان الأرض، ومزجها لتصبح أجمل وأبهى".

" هذا ما سمعناه من أجدادنا كذلك، ولكن يبدو لي هذا الكلام غير واقعي، فكيف لبلد مثل ذلك أن يختفي؟!"

" الطبيعة البشرية، الكبر والطمع، فبعد ثلاثمائة عام من فتح الأندلس، بدأت الصراعات الداخلية بين الأمراء على حكم الأندلس؛ ما تسبب بضعفهم، ولكن الأمر لم يقف عند ذلك، بل وزاد العداء بين الأمراء من أجل السلطة إلى أن أصبحوا لا يدافعون عن إخوانهم حين يهاجمهم الفرنجة، بل يتركونهم لمصيرهم المظلم، إلى أن وصل بهم الحال في النهاية أن يقاتلوا إخوانهم بأوامر من الفرنجة، أو أن يقتل أحدهم أباه من أجل الحكم".

" ثلاثة قرون لبدء الصراع؟! هل يعيد التاريخ نفسه؟!".

" ما ذا تقصد؟!"

" لا عليك، ألم يكن فيهم رجل رشيد ليوحد صفهم من جديد؟".

" كيف لرشيد واحد أن يوقف طوفانًا من السفهاء؟".

" فماذا حدث بعد سقوط غرناطة؟".

" حين سلم الزغابي غرناطة للإسبان، نصت المعاهدة على أن يسمح الإسبان للجميع بأن يبقوا على أديانهم، وألا يُكره أحد على الخروج من دينه، وأن يبقوا أماكن عبادتهم، وأن يدعوهم يؤدون طقوسهم بحرية تامة، وألا يعتدي

الإسبان على أموالهم، مقابل أن يقوموا بدفع الضرائب للعرش الإسباني".
" فلماذا تقاتلونهم وتختبؤون في الكهوف، أليس في ذلك نقض للعهد؟".
" أي عهد؟ لقد نقض الإسبان عهدهم بعد بضع سنوات فقط، البداية كانت مع النصارى من المذاهب الأخرى غير الكاثوليكية وخصوصًا الموحدون منهم، وبعدها عملت محاكم التفتيش على تقصي اليهود، كل ذلك ومعشر المسلمين لم يحركوا ساكنًا للدفاع عمن تعاهدوا معه على حمايتهم من الظلم حين جاؤوا فاتحين قبل بضع قرون، لقد نقضنا عهدنا مع أولئك حين تركناهم دون نصير، ما نقوم به الآن هو محاولة التكفير عن آبائنا الذين خنعوا من قبل، يكفينا حديثًا عن الأندلس، خبرني عن يقطينيا".
" إنها بلاد واسعة، قد أنعم الله عليها من كل الخيرات، تنتشر في بقاعها مدن عظيمة من قرطبة الجديدة في الشرق، إلى الملائكية بالغرب، كما بين مكة وأكادير، بينهما تلال وجبال، سهول ووديان، غابات وصحار".
" قرطبة الجديدة؟! الملائكية؟! هذه مدنكم؟".
" مدينتان ساحليتان، تتوسط الأولى ساحة واسعة حيث تقام جميع احتفالياتها، لا يكاد يرتفع فيها بنيان فكلنا نقطن بمنازل من طابقين، ولا يشق أفقها سوى مآذن مسجدها العتيق وأبراج الحصن القديم، أما الملائكية فلم أزرها منذ كنت طفلا، لا يختلف أفقها عن قرطبة سوى بقمم الجبال التي تحيط بها، تختلف أشكال مبانيهما عمّا رأيته هنا، فمباني قرطبة مغطاة بالنقوش والألوان الغريبة المختلفة إذ إن من عاداتنا أن يحتفل ببلوغ الطفل المائة بدر بأن يعطى أصباغًا وأدوات ليقوم برسم ما يشاء على داره وتبقى دون تغير إلى أن يضيف عليها طفل آخر من نفس الدار، بينما تغطى مباني الملائكية بالأشجار المختلفة التي يزرعها كذلك أطفالهم حينما يبلغون الثمانون بدرًا، موانئهما بسيطة مخصصة لمراكب الصيد، ويندر أن تجدي فيها أحد سفن الحرس اليقطيني".
" وكيف هو حال أهلها؟ أتعتنقون جميعكم نفس الدين؟".
" يعتنق معظمنا الإسلام، إلا أن البعض لا يزال على أديان أجدادنا دون أن يكرههم أحد على تركها، ومع ذلك فلا زلنا نحافظ على الكثير من تراثهم خصوصًا في علاقتنا مع باقي المخلوقات من خلال تواتمنا".
" تواتمكم؟".
" لكل منا توتم، وهو مدخل علاقته مع باقي مخلوقات الله" ، أشرت إلى نسر عملاق يناهز في حجمه عوقب واقفًا على أحد الأغصان، نظرت سارا إليه وهو يهبط على ظهر فرسي أمامي مباشرة. أشهرت سلاحها بفزع.
" لا تخافي، فقد جاء بطلب مني" ، مددت يدي لأربت على رأسه فتحرك بعصبية. " يبدو أنه متخوف بعض الشيء؛ لأنه لم يعهد بشرًا يتحدث معه".
" أنت تتحدث معه؟".
" نعم، إن اسمه رابيدو، وقد طلبت منه أن يرافقني باقي هذه المهمة".
" هل يتحدث كل اليقطينيين مع النسور؟".

" كل منا يتحدث مع فصيل توتمه، وأنا من توتم الكواسر. بعد أن نُتِمّ مائتي بدر يبدأ كل منا بتعلم توتمه على يد أحد المشائخ في الجامعات المنتشرة في جميع أرجاء يقطينيا؛ حيث يجتمع فيها علماؤنا ومشائخنا من جميع العلوم ليدرسوا علمهم لمن يشاء أن يتعلم، ...."

توقفت فجأة، وأشارت إليَّ بالصمت. وقفنا ساكنين لبضع دقائق ورأيت أسوار القصر فوق الجبل، همست في أذني: " الحرس في كل اتجاه، سنسير بهدوء إلى أن نصل إلى أحد المداخل السرية لقصر الحمراء، سأضطر إلى عصب عينيك الآن".

أخرجت منديلها الأحمر، فعصبت به عينيَّ بعد أن طَلَبْتُ من رابيدو أن يحلق حول قصر الحمراء ليراقب المكان.

مضى بعض الوقت قبل أن نصل إلى مدخل كهف على سفح أحد التلال، حيث أمضينا طريقنا لنغيب عن نظر رابيدو، توقفنا بعد أن تعمقنا في الكهف قليلا: " ترجل عن فرسك، فسنترك الخيول هنا".

ترجلت، فأخذت بيدي لتقودني عبر دهاليز ذلك الكهف، حتى وصلنا إلى درجات صعود أوصلتنا إلى باب، شعرت بتيار هوائي يتسلل من خلال الباب إلى الكهف، أعتقد أن سارا ومن معها كانوا يرهفون السمع للتأكد من خلو المكان خلف ذلك الباب قبل أن يفتحوه، لم تقبل سارا بفتح عصابة عيني إلا بعد أن أمضينا بعض الوقت خارج الكهف لنصعد درجات أخرى، وما أن رفعتها حتى اهتز كياني في انبهار بما أراه، لقد كنا في قاعة توسطتها قبة زُيِّن سقفها بطريقة غريبة لم أرَ مثلها من قبل، تتسلل من خلال النوافذ التي حاصرت القبة آخر أضواء الشمس لهذا اليوم. زُينت جدرانها بزخارف وآيات، ومن أمامي كانت نافذة تطل على حديقة القصر، حيث تمتد بركة ماء محاطة بالنوافير من جانبيها.

" لقد هجر الإسبان هذا المكان منذ قرون، ولكنه لا يزال صامدًا ليكون شاهدًا على ما كانت عليه الأندلس، لم يبقَ على مغيب الشمس الكثير من الوقت، فعجّل إذا أردت أن تصطاد ظلال هذا المكان".

أخرجتُ الصائد وبدأتُ باصطياد ظلال كل ما تقع عليه عيناي، كان مرافقونا يتقدموننا للتأكد من خلو المكان قبل أن يسمحوا لنا بالتحرك، حين خرجت إلى الحديقة، نظرت إلى السماء لأجد رابيدو لا يزال محلقًا حول القصر، اصطدت المزيد من الظليلات للحديقة ونوافيرها وبركها.

" علينا أن نرحل حالا". قُلتُ لسارا.

" لماذا؟"

" لقد وصل بيدرو وجنوده".

" كيف لك أن تعرف ذلك؟".

" رابيدو".

نظرت إلي بتهكم، ثم أشارت إلى العسس لتحري الأمر، فما لبثوا أن عادوا: " هناك عدد كبير من الجنود الإسبان يحاصرون القصر بالفعل سيدتي، وقد تحركت

مجموعة منهم يتقدمها بيدرو بنفسه إلى داخل القصر".

اتسعت عيناها بذهول وهي تبدل نظرها بيني وبين الرجل: " كيف علم بيدرو بأننا هنا؟".

" لقد أخبرته أنني سألتقي بالمقاومة هنا في هذه الليلة".

" لقد استدرجتنا إلى هنا ليقبضوا علينا؟" قالتها بغضب بعد أن استلت خنجرها ووضعته على نحري.

" لم أكن أعلم شيئًا عن المقاومة، لقد كنت أجاريه فقط ليحملني إلى هنا لأرى القصر" ، دفعت الخنجر أكثر متسببة بجرح تسيل منه الدماء: " لقد كان ديفيد على حق، ولكنني أنا من أقنعته بأن يثق بك".

" أقسم لك أنني لم أرتب لهذا، ولكنني أستطيع المساعدة للخروج من هنا" ورفعت يدي ببطء لأدفع الخنجر بعيدًا: " إنهم يبحثون عني ولا يعلمون بوجودكم هنا بعد، معظم الجنود في الجهة الشمالية من القصر، وأعدادهم قليلة ومتباعدة عند السفح الجنوبي، حيث كان مدخل الكهف الذي دخلنا منه، يمكنكم الهرب من هناك، بينما أشغلهم أنا هنا".

نظرت إليّ بشك وتردد: " وكيف لنا أن نتركك هنا لتخبرهم بمكاننا؟".

" لقد عصبتم عينيَّ عند جميع أماكنكم السرية، فكيف لي بأن أخبرهم بها؟ اهربوا الآن قبل أن يصلوا إليكم".

ترددت للحظة قبل أن تشير إلى مرافقيها لينسحبوا بهدوء إلى ممرهم السري: " سأنتظرك في الغابة حيث عصبت عينيك".

تحركت نحو البوابة التي سيدخل منها بيدرو لأقف أمامها عاقدًا ذراعيَّ أمام صدري في انتظاره، بينما تتلاشى آخر أضواء الشمس. وما أن عبر البوابة حتى توقف فجأة حين أصبحت داخل الهالة الضوئية الناتجة عن المشاعل التي يحملها رجاله من حوله. تبسمت بسخرية:

" بيدرو، لم أكن أعلم أنك مخبري هنا، لو علمت ذلك لوفرت على نفسي مشقة الطريق، ولأخبرتك بكل ما تحتاج حين التقينا أول مرة".

" لم أعهد جواسيس الترك بهذا الحس الفكاهي، قل لي أين مخبرك، وأين أخفيتم الأموال التي سرقتموها مني وأعدك أن أقتلك دون تعذيب".

" عد أنت وجنودك من حيث أتيتم، وأعدك ألا أفتح عليكم أبواب الجحيم".

قهقه بصوت عالٍ: " أنت تفتح علينا أبواب الجحيم؟ أنت وأي جيش؟".

أدخلت يدي في حقيبتي لألتقط إحدى القوارير، ثم رفعت يدي اليسرى إلى السماء لأنزلها بسرعة مشيرًا نحو بقعة الأرض من أمامه، بينما ألقي بالقارورة بحركة مسرحية كأنني مشعوذ من إحدى المسرحيات التي كنت أحضرها مع والدتي حين كنت طفلا، انفجرت القارورة بلهب ارتفع بضعة أقدام إلى السماء حاجبة أنظار بيدرو عني، وما أن تقهقرت ألسنة اللهب إلى نار على الأرض ظهر لهم رابيدو وقد وقف خلفها بيني وبينهم وسيفي ملقى على الأرض قد غمرته النيران، سمعت أصوات تمتمات بدأت تنتشر بين الجنود.

" أتتوقع أن يرتجف جنود العرش الإسباني خوفًا من نسر؟".

رفعت عينيَّ إلى السماء، حيث تعالت أصوات نسور، ثم بدأت السماء تمطر نسورًا حتى تجمع من حولي مئات النسور، تركزت عيونها جميعًا على بيدرو، وهي تلمع من لهيب الأرض ومشاعل الجنود.

" كلكم في عداد الموتى فهذه النسور لا تجتمع إلا لتمزيق الجيف".

صرخت صرخة، ومعها أقلعت النسور متجهة نحو بيدرو وجنوده، فانطلق جنوده يسابقون الريح هربًا، بينما انطلق بيدرو نحوي واستل سيفه من غمده:

" سحرك هذا لا يفزعني، أنت من ستأكل جيفة هذه النسور". قالها وهو يثب من فوق النيران.

التقط رابيدو سيفي من مقبضه، بينما تنحيت جانبًا متفاديًا هجمة بيدرو، مددت ذراعي إلى جانبي لألتقط سيفي الذي ألقاه إلي رابيدو. أطاح بيدرو سيفه إلى يساره ليلتقي بنصل سيفي بقوة كادت تقتلعه من قبضتي، هبط رابيدو على رأسه، وقبض على خصلات شعره، فرفع سيفه ولوح به فوق رأسه في محاولة لإصابة رابيدو، انتهزت تلك الفرصة لأضرب قبضته بجانب سيفي؛ فصرخ من الألم، وأفلت السيف من قبضته، حركت نصل سيفي نحو عنقه، ولم يكد يصل إليه حتى اصطدمت به طلقة حديدية أسقطته من يدي، أكملت حركة جسدي لأضرب فكه بقبضتي اليسرى فيسقط مغشيًّا عليه. نظرت إلى الموضع الذي جاءت منه تلك الطلقة؛ فرأيت شبحًا في حرملة بيضاء ناصعة يهرب ليختفي في ظلمة الليل.

أخذت سيفي وأعدته في غمده، ونظرت نحو جسد بيدرو:

" إنه لمن حظك أنني على عجالة من أمري، وأنني لا أقتل العزل".

ثم انطلقت خارج أسوار القصر نحو الغابة.

(14)

تمزق

قبيل فجر السبت الحادي عشر من صفر عام *290* س . غ

هذا هو اليوم الموعود، هذا هو يوم اللقاء، لا زلت لا أصدق أننا هنا في أرض المعركة، تبدو لي الأحداث كأنها حلم مزعج سيمضي سريعًا، كنت أُثَبِّتُ نفسي بأن الخليفة وحكماء القبائل لن يسمحوا لهذه المعركة بالبدء، بأنهم لابد أنهم سيجدون مخرجًا من هذا المأزق، ولكنني أقف في خيمة الخليفة قرب الضفاف الشمالية للنهر الأحمر، حيث يتناقش شيوخ القبائل، وقائد الجيش على مكر هذه المعركة للمرة الثالثة، كنت شاردًا في أفكاري قبل أن تنتزعني صرخة قائد الجيوش: " باز، هل فَوْجَك قادر على أدء مهمته؟"

" نعم سيدي، ولكن ألا ترى أن فوجًا من عشرة جنود فقط لا يكفي للقضاء على كتيبة كاملة من الرماة؟!".

" نحن لا نعلم يقينًا بوجودهم، كما أنكم لستم أي فوج، أنتم فوج التواتم، قدرتكم على استعمال تواتمكم في القتال تجعلكم قوة لا يستهان بها في هذه المعركة، كما أننا لا نملك أن نبعد عددًا أكبر من الجنود عن أرض المعركة الحقيقية، لذلك فعليكم الإنضمام إلى القتال إذا أتضح بأنني مخطء".

" ولكننا لسنا تلك القوة التي تتحدث عنها، فلم يمضوا سوى بضعة أشهر في حلقتنا، ولم يتقنوا بعد قدراتهم في التواصل مع تواتمهم مثلي أنا والباز، وكما تعلم فإنهم لم يبدؤوا العمل على دمج ذلك بقدراتهم القتالية سوى في الأيام القليلة الماضية ونحن في طريقنا من العين إلى هنا".

" في جميع الأحوال لن نرسل أكثر من فوج واحد، وفوجك هو بكل تأكيد الأفضل لهذه المهمة، أم أنك تفضل أن نرسل غيركم؟"

كانت مهمتنا أن نلتف حول تلة على الضفة الأخرى من النهر الأحمر عند التقائه بنهر وتشاتي والذي تحفه جنوبًا غابة كثيفة، يعتقد كبير ماكري الخليفة بأن جيش جبل لابد وأن يضع مجموعة من الرماة فوقه خصوصًا وأن جيشه قد سبقنا وخيّم هنا منذ يومين. ومهمتنا تقتضي الوصول إليهم مع بدء المعركة حينما يظهر الرماة أنفسهم لدعم جيش جبل الأساسي.

تحرك الفوج قبل بزوغ الفجر لنعبر النهر الأحمر قبل أن يرفع الليل أستاره، انطلق ليل يسابق أضواء الفجر ليستطلع التلة والغابة المجاورة لها دون أن يلحظه أحد، بينما بقي صلب في النهر ممسكًا بسراب الذي سبح صعودًا عكس تيار النهر، عاد ليل إلينا حين وصلنا إلى سفح التل وقد بزغ قرص الشمس في السماء.

" يوجد بالفعل مجموعة من الجنود في الغابة يتحركون بسرعة نحو قمة التلة، يتجاوز عددهم المائة، ومن خلفهم ثلاث مدفعيات، يحرس كل منها عشرة جنود" قال شهاب.

" لن نلحق بهم في الوقت المناسب إذا تبعناهم عبر الغابة، يجب أن نفترق، عامر، ترياق، قابض، شهاب، أنتم معي، سنتسلق حتى نصل إليهم، بينما

يلاحقهم الباقون بإمرة فداء من الغابة".
" ألا تعتقد أننا قادرون على التسلق معكم؟". قال صعب بحنق.
" إنهم تواتمنا، لن يتمكنوا من التسلق، وبدونهم نفقد معظم قوتنا، هلموا لقد سمعتم أوامر عريفكم، لننطلق بأقصى سرعة لنصل قبل المتسلقين". رد عليه فداء بحزم وهو يغمز لي بتحدٍ ثم ينطلق ركضًا.
تمتم صعب بكلمات لم أفهمها وهو يهز رأسه متفهمًا قبل أن يلحق بفداء مع باقي مجموعته.
" اتبعوني بهدوء، لا تتهوروا في التسلق، لا أريد إصابات ولا أريد إصدار أي أصوات قد تنبههم بوجودنا".
تسلقنا السفح الشرقي للتل، ووصلنا إلى القمة في بضع دقائق، وقف شاهين على رأسي قبل أن أتجاوز حافة التل ليتأكد من خلو المكان، رأى أول الرماة وهم يخرجون من بين أشجار الغابة إلى هذه الساحة في قمة التل. همست:
" لقد وصلوا، اثبتوا في أماكنكم، لو رأونا الآن من هذه المسافة فسيرموننا بسهامهم قبل أن نصل إليهم، قابض اطلب من أخيك أن يزحف فوقنا على حافة الجبل، وليحذرنا لو اقترب أحدهم من هنا، سأطلب من شاهين أن ينزل، فهو أكثر وضوحًا وإثارة للشبهات".
تعلقنا لدقائق أخرى في أماكننا ننتظر، بينما تقدم الرماة نحو السفح الشمالي، ووقفوا بتشكيلتهم.
" لقد وصل جميع الرماة" همس قابض في أذني.
وقبل أن أصدر أوامري لهم بالصعود ومهاجمتهم، سمعنا صياحًا ودمدمة قادمة من الغابة تبعها صدى سقوط جذوع أشجار، ثم صوت انفجار. لقد بدأ فداء المرح قبلنا. تسبب ذلك الضجيج بدربكة في صفوف الرماة تحولوا بعدها نحو الغابة، ورفعوا أقواسهم ومقانصهم نحوها بتأهب.
" الآن" ، رفعنا أجسادنا فوق التل لنهجم على الرماة، لم يكن حولهم أي مشاة لحمايتهم. كان هسس أول من انقض بأنيابه على كعب أقرب الرماة له قبل أن يسابق الريح ليلتف حول ذراع قابض وهو يخرج من خلف السفح ليتحرك بسرعة خارقة ضاربًا بسيْفيْه يمنة ويسرة، فمن لم يصبه السيف أصابه ناب هسس، طوح ترياق بسيفه ليقذف هود على الرماة، بينما يكمل حركة سيفه ليضرب بها صدغ أحدهم، سقط هود على قفا أحدهم ليلدغه، ثم يسقط أرضًا، ويلدغ آخر في قدمه قبل أن يعود لتسلق جسد أخيه، ويتعلق بسيفه مجددًا. في تلك الأثناء كان جسد عامر يقطر عناكب من كل الألوان والأعراق، معظمها شديد السمية والتي بدأت تنتشر على الصخور من تحت أرجل الرماة؛ لهذا أصر على أن يدهننا جميعًا بدهن ذي رائحة يقول بأنه قد درب عناكبه على ألا تلدغ أي مخلوق تفوح منه هذه الرائحة، بينما تهاجم الآخرون بشراسة، فعامر لا يملك قدرتي أنا وفداء على التعامل مع أكثر من توتم في وقت واحد؛ ما يعني أنه لا

ينسق هجماته سوى مع شوك، الذي وقف على خوذة عامر، كان مشهد عامر وهو يؤرجح رأسه كالمجنون وهو يبارز خصومه مرعبًا، ولكن رعب خصومه لا يوصف حين يفاجئون بعنكبوت عملاق يحوم حول خوذته متعلقًا بخيوط بيته الذي نسجه هناك والتي يتركها لينطلق متجهًا نحو وجوههم أو نحورهم ليقرضهم، ويضخ سمه في عروقهم متسببًا بتشنج أجسادهم قبل أن يطلق خيوطه نحو عامر ليحوم حول رأسه مجددًا قبل أن تضرب أجسادهم الأرض. أما أنا وشهاب فقد كنا في تناسق تام مع ليل، وعوقب، وشاهين الذين كانوا يحومون حولنا كأنهم عاصفة من الريش، والمخالب، والمناقير، تتحرك تلك العاصفة معنا حيثما نتحرك؛ لتقوم بتشتيت انتباه الرماة بتحركاتهم والضربات والجروح المزعجة. كان عنصر المفاجأة في صالحنا للدقائق المعدودة الأولى قبل أن يعيد الرماة تنظيم أنفسهم لمهاجمتنا، ولكنها كانت كافية لإخراج قرابة الثلاثين منهم من القتال، معظمهم مسمومون، أو فاقدو الوعي، أو ذوو إصابات بليغة، بينما قُتل منهم قرابة الخمس بالرغم من أنني كنت قد أكدت على فوجي بألا يقتلوا يقطينيًّا إلا في الضرورة القصوى، فجميعهم إخوة لنا. لكن هذا لم يكن الوقت للتفكير في ذلك، فلا زلنا في معركة غير متكافئة، بخمسة رجال، وستة تواتم أمام ما يقارب السبعين، وقد رفع معظمهم قوسه أو مطلاقه نحونا، بينما استل بعضهم سيوفهم، سمعت حفيف انطلاق أول سهم استقر في حنجرة أحدهم، وقبل أن يتنبه أحد زملائه لإصابته أو لمصدر السهم، برقت ومضة في الغابة، تلاها صوت انفجار مدفع وقذيفة مرقت بين صفوف الرماة كما يمرق السهم من الرمية، ليضيف بضعة قتلى، وقرابة العشرين مصابًا لحصادنا هذا اليوم. ظهر فداء، وفهد، وصعب، وتواتمهم من بين الأشجار، وتعالت أصوت صيحاتهم ودمدماتهم وهم يجرون نحونا، أطلق الرماة أسهمهم نحوهم؛ ما أكسبنا لحظات قليلة لمهاجمتهم ثانية قبل أن يضعوا سهمًا آخر في أقواسهم، احتمى فداء ومن معه من الأسهم القادمة تحت دروعهم، يبدو للناظر كأن بعضها قد ارتدت نحو راميها؛ إذ أصيب ثلاثة منهم بسهام أمطرتهم من الغابة. لقد أصبحت المعركة أكثر تكافؤًا الآن، يقاتلنا الآن اثنا عشر منهم بسيوفهم، بينما يمطر الباقون فداء، ومن معه بأسهمهم لمنعهم من التقدم. لم تمض سوى دقائق معدودة حتى بدأوا بالسقوط واحدًا تلو الآخر دون أن يتعرض لَهم أحد، لقد بدأ مفعول سم باقي عناكب ترياق، ألقى الباقون بأسلحتهم، ووضعوا أيديهم فوق رؤوسهم في رعب واستسلام.

أشرت لفوجي بالتوقف: " قوموا بتكبيلهم جميعًا" ، بينما تفقدت فوجي، لقد نجونا بفضل الله، ومكننا منهم. لقد أصيب عامر إصابة بليغة في ساقه اليمنى.

صاح فداء بفرحة النصر وهو يتقدم نحونا، بينما أشار إلى فهد وصعب بالعودة إلى الغابة مع تواتمهما.

" ترياق تفحص إصابة عامر، ثم اهتم بجرحاهم ومسموميهم".

" ما رأيك أن نقلب السحر على الساحر؟ لقد طلبت منهم أن يحضروا المدفع

إلى هنا لنستخدمه على جيشهم".

" لا بأس، ولكن أبقوه مخفيًّا عن أنظار الجميع حتى تصلنا الإشارة، فأوامرنا كانت واضحة بأن نبطل قدرة الأعداء من استخدام هذا التل للرماة، ثم ننتظر الأوامر".

تقدمت أنا وفداء نحو سفح التل الشمالي لنلقي نظرة على أرض المعركة، حيث رأينا جبل على فرسه بين الجمعان ويبدوا أنه قد انتهى للتو من إلقاء خطبة أو توجيه تهديداته ليعود إلى الصفوف الخلفية من جيشه، تقدم والدي بفرسه من بين الصفوف وبدأ يلقي خطبته على جموع جيش جبل التي حفظت كلماتها منه، وهو يعيدها طوال الليل على مسامعي:

" يا معشر اليقطينيون، لا حاجة لنا بقتالكم فجميعنا إخوة. لم نأتِ هنا اليوم لإبقاء خليفة المورِ في عرشه، ولكننا هنا اليوم للحفاظ على العدلَ والسلام اللذان نعمنا جميعًا بهما منذ أن عاهدهم أجدادنا. لم يعاملنا المور إلا بكل إجلال واحترام، فلم يفرضوا علينا دينهم، فاختار منا دينهم من اختار، وبقي منا من بقي على دين آبائهم، فلم يقاتلوكم على ذلك ولم يضيقوا عليكم، ولم يستغل المور حكمهم علينا للاستحواذ على خيرات أرضنا، فحتى الخليفة لا يملك سوى قصره الذي بناه أجداده وتجارته التي يقتات منها. أناشدكم برابط الأخوة ودماؤنا التي تجري في عروقكم أن تعودوا عن هذا الشر الذي ضمرتم لنا ولكل من دان بدين المور، فمن رجع الآن فلا تثريب عليه، ومن انضم إلينا الآن فلن نعاتبه، أم من أصر على تهجير المورِيين عنا وتحقير كل من يدين بدينهم وتدمير ما بينيناه سويًّا في هذه القرون الثلاث فلن تأخذنا فيه لومة لائم".

عاد والدي إلى صفوف الجيش وتعالت أصوات من جيش جبل تحولت إلى دمدمة، وبعد دقائق خرج مئات الجنود من جيشه متجهين نحو جيش الخليفة، لم يشهر أحد منهم سيفه، إنهم ينضمون إلى جيش الخليفة، امتلأت السماء من فوقهم بسواد، حاول جيشنا تحذيرهم دون جدوى فقد أمطرتهم سهام من جيش جبل؛ ليصاب غالبيتهم بإصابات بليغة، سمعت أصوات تكبير غاضبة تتعالى من جيش الخليفة، ومعها انطلقت الصفوف الأمامية نحو جيش جبل.

التقى الجمعان في ملحمة لم ترَ هذه الأرض مثلها منذ قرابة القرنين، كانت المعركة غير متكافئة؛ فجيش الخليفة أكبر من ضعف جيش جبل. كنا نقف على تل يقع خلف صفوف الأعداء؛ أي أننا نستطيع تسديد ضربات موجعة له من هنا، إلا أن السفح الذي يفصلنا عنهم ليس شديد الانحدار، ما يعني أنهم قادرون على الوصول إلينا بسهولة. لا، الأفضل أن ننتظر حتى لا يعلموا بتمكننا من التل، ولن نهاجمهم إلا بأوامر صريحة، أو إذا فضح أمرنا.

تعاونا على دفع المدفع إلى حافة التل، فوجوده هنا سيمكننا من استخدامه لصالحنا حالما تصلنا أوامر المشاركة في المعركة. أشار شهاب إلى الجهة الأخرى من أرض المعركة: " ما هذا؟".

رفعنا رؤوسنا لنرى سحابة غبار متصاعدة تقتحم الصفوف الخلفية من جيش

جبل متجهة إلى قلب المعركة. رفعت منظاري لأرى قطيعًا من الدببة تجري ومن خلفها بضعة فرسان، والعديد من المشاة.

" صعب، هل رأيت شيئًا كهذا من قبل؟".

ناولته المنظار: " هذا غريب، الدببة لا تعمل في قطيع، إنها تخترق صفوفنا دون أن تهاجم أحدًا، ما بين فزاع يبتعد أو تدفعه خارج الطريق، ولكن إلى أين!" قالها بتعجب.

" إنها تتجه نحو الخليفة، ولا يبدو أن أحدًا قد تنبه لها، يجب أن نحذرهم" ، لا أذكر من قالها، ولكنني أجبته:

" سأرسل عوقبًا ليحذرهم، أتمنى أن يكون معهم أحد من توتم الكواسر يفهمه" وانطلق عوقب محلقًا فوق أرض المعركة بحركات واتجاهات مراوغة ليتفادى الإصابة بالأسهم أو الطلقات.

" وماذا إذا لم يكن معهم أحد يفهمه؟ أو إذا أصاب أحدهم عوقبًا بسهم قبل أن يصل؟ لا، يجب أن ننطلق لنحذرهم، يجب أن نحمي الخليفة مهما كلفنا الأمر".

لم يكد فداء ينهي جملته إلا وهو على ظهر هاكوما وقد انطلق حراك أمامه.

صحت: " فداء، انتظر، نحن خلف صفوف الأعداء، لن تصل إليه، هذا انتحار".

ولكنه تجاهلني وهو يبتعد كالسهم.

" يجب أن نلحق به" صاح فهد وهو يجري خلفه هابطًا من التل.

بدر: " سأرسل معكم نابًا بينما أبقى هنا، حيث يمكنني حمايتكم بهذه القانصة وقوسي، يستطيع عامر توجيه وإطلاق المدفع لإثارة الفوضى من حولكم".

نظرت في أعين باقي الفوج، فرأيت فيهم العزيمة على اللحاق بفداء وحماية الخليفة.

" حسنًا، ابقوا معًا، فمجرد نزولنا على هذا السفح سيكون كافيًا ليعلم العدو بأن رماته قد سقطوا، انطلقوا إلى الخليفة".

كان فداء قد قطع نصف السفح، وكاد أن يصل إلى النهر، يبدو أن العدو لم يلحظ فداء، أو أنه لم يُعِرْه الكثير من الاهتمام، ولكن بمجرد أن بدأنا هبوطنا على السفح، رأيت عددًا لا بأس به من الجنود وقد غيّروا اتجاههم وتحركوا نحو صفوفهم الخلفية نحو النهر؛ حيث ينتظر صلب مع سراب. مرق حراك أمام صلب وهو يعبر النهر بسرعة ومن خلفه فداء، سمعت صلب يحدث فداء إلا أن فداء لم يعره الكثير من الاهتمام وهو ينطلق خلف حراك، وما أن خرج حراك من مياه النهر حتى وصله أول المقاتلين، نطحه حراك بقوة ليلقيه جانبًا وهو يكمل انطلاقته ويضرب بقرونه يمنة ويسرة ليفسح الطريق لهاكوما. تراجع صلب في النهر ليقترب منا، بينما يبتعد عن المهاجمين، وبدأت أفواج من المقاتلين بولوج النهر للهجوم على صلب ولقائنا حين نصل إليه، وما أن وصل المهاجمون إلى منتصف النهر، غطس صلب تحت مياهه، بينما وقف فهد وبراق عند شاطئ في انتظار بقيتنا، وصلت إلى شاطئ النهر وولجته ليتبعني الباقون، بعد لحظات بدأت

صيحات الجنود التي تنقطع حين يختفون تحت مياه النهر كأن شيء يسحبه إلى أعماقه سحبًا لتظهر بعدها جثثهم تجرفها تيارات النهر وقد أحيطت بحمرة دمائهم، لابد وأن هذا من عمل صلب وسراب، التقيت أول الجند فبادرته بطعنة من سيفي في حنجرته، وأنا أصارع مياه النهر لأتجاوزه، وصل باقي فوجي ليقابل الجنود، وبدأت ملحمة دموية في النهر الذي تلون اليوم ليكون بالفعل النهر الأحمر، توالت طلقات وأسهم بدر لتحصد الجنود من حولنا، بينما أطلقت قذائف المدفعية على الأفواج المتدافعة نحونا أحيانًا، وأمام فداء أحيانًا أخرى، كان شاهين يحوم حولنا ليعطيني تفاصيل المعركة من حولي، ويحذرني من تحركات الجنود التي قد لا أتنبه لها، ولكنه لم يكن يتمكن من المشاركة بهذه المعركة؛ فكثرة المياه قد تعيقه عن الطيران والمراوغة. أما ليل فقد عاد إلى الغابة، فالبوم غير معتاد على اليقظة إلى هذا الوقت من النهار، قذف ترياق بهود عبر النهر ليقلص عدد الجنود الذين يعبرون إلينا. بقي معنا أربعة تواتم، وجميعهم يجيد التحرك في مياه هذا النهر، ولكن سراب - كان وبلا منازع- سيد هذه المعركة. ولكننا لم نستطع تجاوز النهر، فنحن سبعة رجال، وأربعة تواتم أمام عدد لا ينتهي من المقاتلين، كلما قتلنا أحدهم جاءنا ثلاثة غيره، لقد كانت معركة بائسة محسومة النتائج، ولكننا رفضنا الاستسلام، لابد وأن نلحق بفداء، لابد وأن نحمي الخليفة. حذرني شاهين فصرخت:

" فهد" صحت محذرًا، نظر فهد نحوي، ورأيت عينيه تجحظان وتنطفئ منهما الحياة بعد أن أصابه سهم في رأسه فيجرفه النهر بعيدًا، ضربت سيفي بغضب لأبتر ذراع خصمي الذي ضربته بقبضتي اليسرى في رأسه لينزلق ويختفي في مياه النهر الحمراء، إلا أنه أمسك بساقي ليسحبني معه، ركلته في وجهه بضع مرات قبل أن يفلتني وأنا أصرع النهر لأرفع نفسي خارج الماء، قبل أن أستطيع الرؤية أمامي من جديد، فوجئت بمهاجم يسدد لي طعنة، لم يكن لدي القدرة على صدها، ولكن سيفه زرع في جسد ناب الذي اعترضها لينقذني، رفعت يدي اليسرى بسرعة لأزرع خنجري في حنجرة المهاجم، ثم برمته قبل أن أدفع بجثته بعيدًا عني. رأيت براقًا يصارع النهر وقد بُترت إحدى ذراعيه، أظلمت الدنيا أمامي، لقد خنت فوجي، كيف سمحت لهذا أن يحدث! يجب أن أخرجهم من هذه المجزرة، لا أذكر الكثير بعد ذلك؛ فقد كنت أقاتل كالمجنون، لا أذكر كم قتلنا منهم، ولا أذكر من بقي من فوجي، ولكنني أفقت على صوت صعب: " باز، اركب على ظهر فزاع وتشبث به جيدًا".

امتثلت لأمره دون تفكير، لم أكن أعلم ما يرمي إليه، أو ربما كنت أعلم ولكنني آثرت إنقاذ نفسي، هل كنت جبانًا حينها؟! هل تركت فوجي يقتل لأنفذ أنا بجلدي؟! لا أدري، ولكن فزاع انطلق بقوة وسرعة ليخرجني من النهر ونلحق بفداء، نظرت خلفي لأجد صعبًا وقد استقر في جنبه الأيسر سهم، بينما يطوح برمحه يمنة ويسرة ليثخن في مهاجمينا، رأيت جنديًّا يسحب إلى عمق النهر فعلمت أن صلبًا أو سرابًا لا يزالا على قيد الحياة، ولكن إلى متى؟ اعترض ناظري

مجموعة من الجنود يحاولون اللحاق بي، فلم أعد أرى النهر.

الآن ليس وقت البكاء، ولكنني لم أتمالك نفسي، كنت أبكي كالطفل في أحضان أمه، صرخت بكل ما بقي في صدري من نفس، لماذا؟ لماذا كل هذه الدماء؟ كنت أقطر ماءً ودمًا، منها دمائي ودماء فوجي، دماء يقطينية، ودماء مورية، ودماء تواتم، لا فرق، فكلها حمراء، أين وجدنا هذه الفرقة التي جعلتنا نريقها كلها؟ لا وقت للبكاء الآن، يجب أن أعود إلى المعركة. كان فزاع يضرب بمخالبه كل من يعترض طريقه حتى رأيت قرون هاكوما، لقد اقتربت من فداء، نظرت أمامه فوجدت أن قطيع الدببة قد اقتحم بالفعل محيط الخليفة، وأن مجموعة من فرسان جبل قد وصلوا إلى هناك، وأثخنوا في حراس الخليفة، كدت أن ألحق بفداء حين توقف هاكوما ليدفع جسده إلى الأمام بساقيه الخلفيتين ويقذف بفداء في الهواء، رمى فداء درعه قبل أن يسقط على الأرض ليعترض طلقة مُدَيْفِع كانت موجهة نحو الخليفة. ترنح فزاع، وفُقدت أذرعه تمسكها بالأرض ليندفع جسده منزلقًا بضعة أقدام قبل أن يلقي بي من على ظهره، لقد أصيب بعدة أسهم وطلقات، ومع ذلك فقد عاد ليقف على قدميه ليضرب الجنود من حوله بمخالبه، رفعت سيفي لأصد ضربة فأس، بينما طعنت فخذ صاحبها بخنجري تبعته بزرع سيفي في صدره، قمت لأجد نفسي وسط حراس الخليفة الذين لم يبقَ منهم سوى حفنة من الرجال، نظرت خلفي؛ فوجدت أبي والخليفة يبارزان جنبًا إلى جنب، هبط شاهين وعقاب لينضما إليّ، قاتلنا قتال البواسل. رأيت سهمًا متجهًا نحو والدي، أمرت شاهين ففرد جناحيه منطلقًا كالريح ليتلقى السهم في جسده الصغير ليجبره على تغيير اتجاهه بعيدًا عن والدي. رأيت رمحًا يضرب صدر فزاع ليخور الدب وقد امتلأ جسده بالسهام وضربات السيوف، لا يزال يفصلنا عن الخليفة عدة جنود بينما لم يبقىَ جواره سوى والدي وحامل علم الخلافة الأحمر الذي كُتب عليه " الله أكبر" ويقاتل بيده الأخرى، رأيت رمحًا متوجهًا نحو الخليفة إلا أنه أصاب حامل العلم في صدره، التقط الخليفة العلم قبل أن يسقط من يد الرجل، كان فداء يُقاتل كالثور الهائج محاولا اختراق الصفوف للوصول إلى الخليفة، لم أكن أعلم أن الخليفة بهذه المهارة في القتال، فقد كان يستخدم سيفه ورمح العلم في آن واحد، دون أن ينكس العلم ولو للحظة فقد كان حريصًا على إبقائه عاليًا، وصل فداء إلى الخليفة لتلتقي أعينهما ورأيت في عيني الخليفة علامات الرضى التي تحولت إلى قلق مفاجئ، ليتقدم بعده بسرعة نحو فداء، ويحتضنه قبل أن يدور حول نفسه لينغرس في جسده سيف كان قد وجه إلى ظهر فداء، خارت قوى الخليفة وهو يسلم العلم إلى فداء ويصيح " الله أكبر لا تُنَكّس" قبل يسقط جسده في بركة من دمائه، ثم دوى صياح أحدهم: " لقد قتلنا الخليفة، لقد قتلنا الخليفة" ، ومع تلك الصيحة بدأ جنود العدو بالانسحاب من حول الخليفة، ومعهم انسحبت آخر أضواء الشمس من ذلك اليوم. سمعت صوت صراخ فداء وهو يضرب بسيفه ورمح العلم في كل اتجاه ليصيب الجنود المنسحبين قبل أن يصيبه أحدهم بطعنة في

صدره لم تكتمل، إذ ظهر رجل في حرملة شديدة الحمرة ليقبض على يد صاحب السيف ليلويها بقوة فتنكسر بطرقعة مخيفة قبل أن يكمل غرز السيف، واختفى الرجل بين الحشود بلا أثر. ركضت إلى فداء الذي تحامل على رمح العلم، فنظر إليَّ بوهن شديد: " لقد مات الخليفة، لقد مات أبي" ، ثم غاب عن الوعي.

□□□□□□□□□□

كنت أنتظر بقلق أمام خيمة الخلافة، كان والدي بالداخل مع الطبيب وهو يتفحص فداء. مضى الوقت ثقيلا لا أدري عن حال فداء؛ فقد كان ينزف بشدة حين حملوه إلى هنا، لم يبد الطبيب متفائلا حين أمر بخروج الجميع. خرج الطبيب ووالدي من خلفه.

" كيف حاله أيها الطبيب؟".

" إنها لمعجزة، فلقد توقف رأس السيف على قلبه تمامًا، لو أنه تقدم إصبعًا واحدًا لكان في عداد الموتى بلا شك، لقد بدأ التهاب بجرحه وحالته متقلبة، ولكنه لا يزال على قيد الحياة الآن".

" اذهب إليه فقد سأل عنك" قالها أبي بصوت حانٍ.

دخلت الخيمة، ووقفت جوار فراشه وقد امتلأت عيناي بالدموع بينما وقف أبي من خلفي، وجدته يكتب على صحيفة بسهم مكسور، رفع عينيه لتلتقي عيوننا؛ فتتدفق مشاعر الحزن والأسى بيننا.

" هل من خبر عن فوج التواتم؟".

" لم يصلنا شيء عنهم بعد، فلا زال القتال قائمًا عند تلة الرماة".

" أتذكر حديثنا بالغابة؟" ، أومأت برأسي إيجابًا، " لابد وأن نوقف هذه الفتنة، لابد وأن نحقن دماء يقطينيا، كان الانتقام أول خاطرة في رأسي حين رأيت مصرع أبي، ولكنني أعلم الآن أنني يجب أن أوقف هذه الحرب إكرامًا لذكراه، أريدك يا باز أن تقطع الأقيانوس لتعود لنا بالحقيقة وبراهينها أيًّا كانت، وليحكم أهل يقطينيا فينا بعدها ما شاءوا".

انتفض جسد فداء، وارتعشت جفونه، بينما دارت مقلتاه، وسقطت الصحيفة من يديه.

ناديت: " أيها الطبيب".

دخل الطبيب مسرعًا إلى الخيمة، وتوجه نحو جسد فداء الذي خبت منه كل علامات الحياة: " اخرجوا جميعًا، وأحضروا معاونيَّ حالا".

التقطت الصحيفة بسرعة قبل أن يدفع بي أبي خارجًا ويرسل في طلب معاون الطبيب.

" لن أسمح لك بالذهاب."

" ولكنه أمر الخليفة! لقد أمرني بآخر رمق له أن أذهب".

" كذلك قد عاهدت خليفتي بأن أحافظ على يقطينيا وألا أسمح لأحد بعبور هذا الأقيانوس، وقد آل الأمر لي الآن".

" سأذهب ولن يمنعني أحد".
" يا قائد الجند، احبسوا هذا الرجل إلى أن يحكم فيه الخليفة".
لم أكن أتخيل يومًا أن يلقي بي أبي في محبس وبهذه السرعة ودون نقاش. لم أشأ مقاومة قائد الجند؛ فقد أصيبت يقطينيا اليوم بما يكفي. قادني إلى عربة ذات قضبان حديدية دخلتها بيأس.
جلست في زاوية محبسي، وأخرجت الورقة من جيبي لأقرأها تحت ضوء المشاعل، وجدت فيها أبياتًا نقشت في ذاكرتي كما نقشها فداء عليها بدمه:

تمضي القرون ولا زلتِ بأحلامنا
كيف أضعناك وقد كنتِ للعالمين منار
نبكي فراقك كل يوم كأننا
كنا هنالك يوم أصابك ذا الدمار
عام وتسع عقود وقرنين قد بعدنا
هل لنا يومًا أن نعود لذي الديار
نطوف بقصورك ما أبقوا من أمجادنا
نعمر الأرض أمنًا وعدلا وللعلم نحن منبار
رثيت لحالك ما فعل بك قومنا
فأسفارك اليوم نحملها كما حملها الحمار
نتغنى بحب ضمرناه في قلوبنا
كذبنا فهل يصيب المحب من يحب بذا الدمار
فدين الله الذي أعزك تركنا
وصرنا نجوب الأرض إفسادًا وإنكار
هي خاطرة تدور بخاطري عنا
أنحن تركناك أم أنت من مللت العار
فنحن بنوم وجهل قد خذلنا
كل من قام بنشر العدل مدرار
نقول قد ضيق الغرب عدلا عنا
ونقاتل بعضنا ونسرق من الأرض أشبار
أيا أندلس والله ما ظلمتنا
فظلمنا لم يذر منا على أرضك ديار
أفيقي أمة الإسلام فكم لنا
من أندلس تدنس بما اقترفنا أدهار
أما يكفيك من طامة تُعْبِرُنا
وما يكفيك من هذا الذل إضرار
أفيقي وقومي بقوة لنصرة قومنا
فلا نريد لمثل أندلس تكرار
أقيمي العدل كما قال ربنا

فعلى غير العدل لا نريد إصرار
فحين تعودي إلى دينٍ أعَزَّنا
حينها تناديكم الأندلس فرحًا بالانتصار

لم أفهم حينها، ولكنني أعلم الآن أنه كان يعلم ما حدث في الأندلس، وقد أثقل كاهله خوفه من أن نكون قد سلكنا نفس الدرب التي سلكوا؛ فيعيد التاريخ نفسه، ونكون نحن سبب هلاكنا.

(15)

المنقض

كتبت هذه الصفحات بالإسبانية وقد ترجمتها إلى العربية، ويبدو أنها قد كتبت في نفس المذكرة ملحقة بالصفحات التي كتبها الباز .

ليلة الثلاثاء الأول من جماد المتأخر عام *291* **(س . غ)**

لم أعتد استخدام سقوط غرناطة مرجعًا للتأريخ، ولكنني بعد أن قرأت ما كتبه الباز في مذكراته، قررت أن أحافظ على ذلك، فهو أقرب إلى قلبي حتى لا ننسى ذلك اليوم.

لقد وصلنا إلى جبل طارق بعد مغيب الشمس ببضع ساعات بعد أن أمضينا اليومين الماضيين على الطريق من النرخا، لقد أوفى الباز بعهده لنا، وتمكنا من صناعة صائد الظلال، وحاكي الصدى بعد أن تمكن مجموعة منا من إخراج الساعاتي من غرناطة، بينما انشغل جنود الإسبان في قتالهم مع الباز. لا زلت لا أصدق قدرة الباز على التواصل مع الجوارح، وادعائه بأنه قد تمكن من هزيمة جنود الإسبان بمساعدة سرب من النسور. بل والأغرب أنه حين وجدني في الغابة تلك الليلة كان برفقة بومة أسماها إنتشادو يقول إنه من ساعده على العثور عليّ في ظلمة تلك الليلة إضافة إلى النسر الذي أسماه رابيدو والذي كان قد جنده في نهار ذلك اليوم في نفس الغابة. وهما الآن معنا هنا ويستخدم الباز البوم لمساعدتنا في استطلاع المنطقة.

" تنتشر المدفعيات حول الجبل في الليالي غير المقمرة أكثر من غيرها، ففي هذه الليالي يتعمد الترك الإبحار بالقرب من جبل طارق ولكن عند حافة مدى مدفعية الإسبان، بينما يقوم الإسبان بمحاولة إغراق سفنهم، إنها لعبة سياسية حربية يلعبونها منذ أكثر من قرن، ولم يغرق الإسبان أي سفينة تركية خلال تلك الفترة، والعجيب أن مقذوفات المدفعية الإسبانية قد احتكت عدة مرات بجوانب السفن التركية" قلت شارحة للباز سبب انتشار الجنود على الساحل الذين نستطيع رؤية مشاعلهم بوضوح في هذا الليلة غير المقمرة.

" ولماذا يقترب الترك لهذه الدرجة من الإسبان؟".

" أعتقد أنهم يتعمدون استفزازهم ليظهروا لهم أنهم لا يخشونهم وأنهم يعلمون تمامًا قدرات مدفعيتهم ومواقعها".

" فكيف سأصل إلى سبتة قبل أن تغادر العنقاء؟".

" يبقي الإسبان بعض المراكب الصغيرة عند أطراف المجمع، سنقوم بسرقة إحداها والإبحار في ظلمة الليل دون أن يشعر بنا أحد، ولكنني لا أعدك بأن نستطيع اللحاق بالعنقاء قبل أن تبحر، ولن تستطيع الاقتراب منها عوضًا عن التسلل إليها إن حاولنا الوصول إليها في البحر".

هز الباز رأسه متفهمًا، وأشار إلى إنتشادو لينطلق في ظلمة الليل ليعود بعد بضع دقائق ويقف على كتف الباز.

" يقول بأن هناك مركبًا على بعد ألف قدم أو أكثر قليلا بهذا الاتجاه، لا يحرسه سوى جنديين".

أشرت إلى مرافقي بالتقدم بالاتجاه الذي أشار إليه الباز، بينما تبعهم الباز وأنا من خلفه. تمكنا من التخلص من الجنديين بسهولة فظهورنا فجأة من ظلمة الليل

أربكتهما للحظات كانت كل ما نحتاجه.
" عليكم بالاختباء بسرعة، فهناك مجموعة من الجند تتجه نحونا" همس الباز.
تحركنا لنختبئ خلف بعض الصناديق المنتشرة من حولنا، وبعد لحظات سمعنا صوت الجنود وهم يقتربون حتى توقفوا عند المركب.
" أين دانيال وباولو؟" سأل قائد المجموعة جنوده.
" لا أعلم سيدي، فمن المفترض أن يكونا هنا بانتظار الأوامر".
" سينالهما العقاب حين أجدهما على تركهما موقعهما دون إذن مسبق، هذه ليست مخالفتهما الأولى، هيا تحركوا بسرعة وأفرغوا حمولة هذا المركب، يجب أن تصل هذه الذخيرة إلى المدفعية في قمة الجبل قبل منتصف الليل".
همست في أذن الباز: " لم تكن هناك مدفعية على قمة جبل طارق من قبل، فرفع هذه المدافع الضخمة إلى قمة الجبل عملية شاقة جدًّا، لابد وأنهم يعلمون بعبور العنقاء الليلة، وهذه محاولة منهم لإغراق أهم سفينة في الأسطول العثماني".
" يجب أن نتخلص منها إذًا".
" لماذا تود مساعدتهم وأنت تعلم أنهم سيعتقلونك لو تمكنوا منك؟"
" كيف لي أن أقف ساكنًا وأدع مسلمًا يُقتل، أليس ذلك ما دمر الأندلس؟! كيف ترغبين بتغيير التاريخ إن كنت تكررين أخطاء من قبلك؟".
تنهدت بحنق؛ لأنه كان مصيبًا، لابد أن نحاول منع الإسبان من إغراق رمز القوة العثمانية حتى وإن كانوا غير آبهين بحالنا، ولم يقدموا لنا أي عون حقيقي، فهم أولا وآخرًا إخوان لنا في دين الله.
" نحتاج أن نعرف أعداد المدافع والجنود على الجبل، هلا طلبت من إنتشادو أن يتقصى لنا الأمر".
" أراك قد صدقت أنني أحادث الطير؟".
" لا، ولكن لا مانع من أن نسلي أنفسنا في مثل هذه الظروف لنخفف من خوفنا وتوترنا".
تبسم الباز وهو يطلق البوم، بينما أشرت أنا لرجالي بالتقدم نحو الجبل لا يقودنا في هذا الظلام سوى ما يصلنا من أضواء مشاعل جنود الإسبان بعد أن خفتت في طريقها إلينا، فإشعالنا لأي مصباح أو شعلة سيفضح وجودنا ويكون هلاكنا. لم نلتقِ بأي جنود، فمعظمهم متمركز عند المدفعيات استعدادًا لأوامرهم ببدء القصف، ومَا أن وصلنا إلى بداية الجبل حتى سمعنا صوت بوق تردد صداه في أرجاء المكان، ومعه أطفئت جميع المشاعل والمصابيح المتناثرة، لقد أطبق الظلام تمامًا بلا أضواء غير تلؤلؤ النجوم في السماء. توقفنا في مكاننا، فكيف لنا أن نعتلي الجبل دون أن نرى موطئ أقدامنا! سمعت صوت رفرفة جناح تقترب ثم تتلاشى بجواري، لابد وأن البوم قد عاد إلى الباز. همست: " لن نستطيع أن نقوم بأي تحرك في هذا الظلام، فلنعد إلى المركب لنرحل من هنا".

" صدقت، لن تستطيعوا ذلك، أما أنا فسأتحرك مع إنتشادو".
أمسكته من ذراعه: " أي مجنون أنت! قد يسمع الجنود خطاك وقد تصطدم بهم أو حتى تسقط من حافة الجبل دون أن تدري".
" قلت لك سيرشدني إنتشادو، ولن يسمع الجنود خطواتي فأنا أجيد التسلل كما تعلمين، أرجوكِ حافظي على هذه من أجلي، إذا قدر الله لي بأن لا أعود لك فخذي مدونتي إلى فداء في قرطبة الجديدة من وراء الأقيانوس وأريه خاتمي دليل أنني قد أعطيتك إياها".
سحب ذراعه مني بلطف ليضع هذه المدونة في يدي وخاتمه حول إصبعي، حاولت الإمساك به من جديد فلم تجد يداي سوى الفراغ، همست باسمه بضع مرات فلم يجب، لقد اختفى في ظلمة الليل، رباه فلتحفظه ولتعده لي سالمًا.

□□□□□□□□□□

مضى الوقت ثقيلا ونحن ننتظر عند المركب في الجهة الشرقية من جبل طارق، لا أعرف كم مضى من الوقت، دقائق أم ساعات، ولولا أنني على يقين بأن الأيام لا تمضي دون شروق الشمس لظننتها أيامًا، ثم سرت في جسمي رعدة حين سمعت دوي انفجار عند جبل طارق ومعه أضاء وميض ظلمة الليل، لَقد أطلق الإسبان أول مدافعهم، ومع تلك الومضة، ظهرت ظلال في البحر تبدو وكأنها شبح سفينة.
توالت الانفجارات ومعها الومضات التي أضاءت الساحل حول جبل طارق، تناولت منظاري، ووجهته نحو السفينة، كانت تقترب أكثر فأكثر مع كل انفجار، إنه الجنون الذي يدفع هؤلاء المحاربين لتحدي بعضهم البعض بهذا السفور. رفعت منظاري نحو الجبل علني أرى أثرًا للباز، إلا أن أضواء المدافع والمشاعل التي أشعلها جنود الساحل قد حجبها سفح الجبل عن إضاءة ما فوقه؛ فلا أثر للباز أو لأي مدفعية هناك، هل خدعنا الجنود ليستدرجونا إلى الجبل؟ ولكن كيف لهم أن يعلموا بأننا كنا نسمعهم حينها؟ أم هل تمكن الباز من التخلص منها؟ ليتني أحصل على إجابة، فقلبي يخفق خوفًا من فقدانه، كيف حدث هذا؟ كيف أشعر بهذه المشاعر تجاه رجل غريب لم ألقه سوى أيام قليلة؟ هذه مجرد مشاعر قلق عادية، لا لا ليست كذلك، فقد أرسلت العشرات من الرجال في مهام قتالية من قبل، ولكنني أبدًا لم أشعر بمثل هذا التوتر من قبل.
درت بالمنظار مجددًا أبحث فوق الجبل، علني أجد ما يهدئ من روعي. هناك، عند القمة، بريق خفيف كأنها شرارة، نعم ها هي ذا مجددًا. بدأت أرى ضوءًا يتزايد عند قمة الجبل حتى أصبحت نارًا مشتعلة في لحظات معدودة، ودوى انفجار شديد تناثر منه الحطام في كل اتجاه، سقطت مدافع عملاقة من قمة الجبل، بعضها سقط في البحر، وأخرى فوق الجنود بالشاطئ، تعالت سحابة من الدخان على قمة الجبل تضيئها نيران الانفجار، ظهرت عدة ظلال خلف الدخان، كأن عددًا من الرجال قد اجتمعوا في مواجهة رجل واحد، لابد وأن ذلك هو الباز،

انعكس على الدخان ظلال أجنحة تحوم بالمكان، لابد وأنهما النسر والبوم اللذان بصحبته، اختلطت الظلال ببعضها، أكاد أسمع صليل السيوف تتقارع، تلاشى الدخان شيئًا فشيئًا، إني أرى الباز الآن بوضوح وهو يبارز جنديًّا ومعه بيدرو، بينما كان النسر والبوم يحومان حول الباز ويتحركان معه كأنهما قطعة منه، أشار بيدرو إلى جنوده نحو المدفع الوحيد الذي لا يزال على قمة الجبل. يحاول الباز الوصول إلى المدفع، إلا أن بيدرو والجندي يقطعان عليه الطريق في كل مرة، بينما يقوم الجنود بتوجيه المدفع وحشوه، أفلت الباز من بيدرو وقفز نحو فوهة المدفع متسببًا في تغيير اتجاهه في نفس اللحظة التي انطلقت منه القذيفة نحو العنقاء.

حركت منظاري نحو العنقاء؛ حيث انفجرت المياه من خلفها تمامًا ولكنها لم تصبها، أعدت منظاري نحو الباز، لابد أن يهرب الآن؛ فقد أنهى مهمته بنجاح. يا إلهي، إنه متعلق بفوهة المدفع، متدلٍّ من حافة الجبل، بيدرو ينطلق نحو المدفع بغضب واضح، وراح يبرح المدفع ركلا، إنه يحاول إسقاط المدفع والباز معه. لقد أمسك النسر بالباز مرفرفًا بجناحيه بهتياج في محاولة منه لمساعدة الباز، ثم انزلق المدفع من حافة الجبل، لن أنسى أبدًا نظرات الباز في تلك اللحظة، لم يكن بها رعب أو خوف، وإنما ثقة وسعادة، وبعد لحظات، سمعت صوت ارتطام المدفع العملاق بالصخور. صرخت بحرقة: " لا، باز لا".

لقد أظلمت الدنيا أمام عينيَّ بعدها، ولم أشعر برجالي وهم يسحبونني ويعيدونني إلى النرخا، حاولت معرفة ما حدث للباز بعد ذلك، إلا أن رجالي لم يستطيعوا الوصول إلى حيث سقطت تلك المدفعية ليتحروا عن جثة الباز. لم يبقَ لي ما أحفظ به ذكراه سوى هذه المذكرة التي كانت أغلى ما يملك.

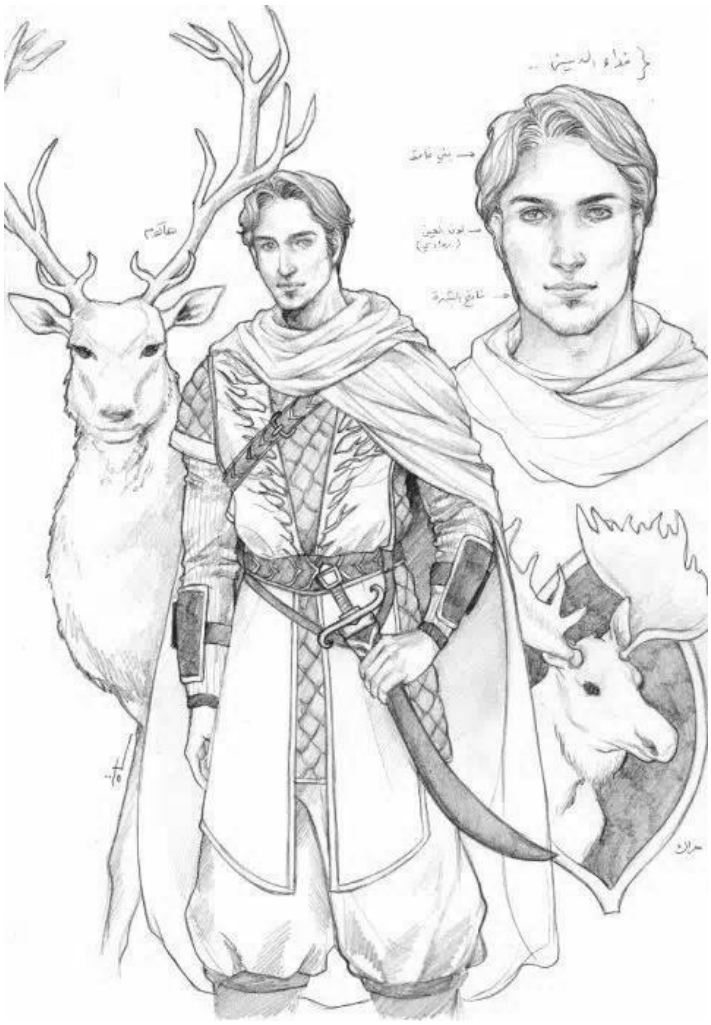

البازالمقنص

عبلة

سارة

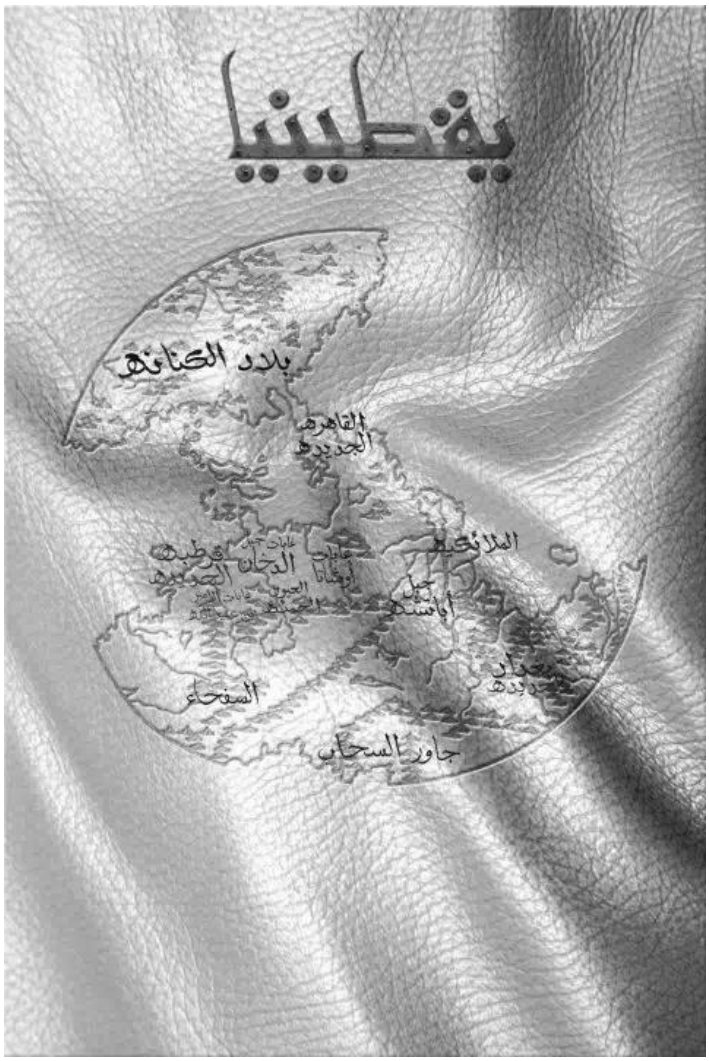
بيطينيا
بلاد الكنانة
القاهرة الجديدة
الدخان
قرطبة الصغيرة
الملائحة
جبل أبو شنب
السفحاء
جاور السحاب

المؤخرة

التاريخ البديل هو آلية تمكننا من إعادة النظر إلى أحداث تاريخية وما كان يمكن أن يكون، لا لنتحسر على مجد قد مضى ولا لنرثي عزة قد فنت ولكن لنتعلم منها ونكتشف ما لا نزال قادرين على فعله. فسؤال " هب أن" يجعلنا نفهم كيف يعمل التاريخ وكيف يصنع، بهذا السؤال نجد أن كل عمل نقوم به وكل حدث من حولنا مهما كان صغيرا يؤثر على مجرى التاريخ، ففي كل قرار نقوم به فرصة لبناء مستقبل مشرق أو لنهدم ما بني من قبل.

الفهرس

شكر وعرفان

البداية

(1) الأُقْيانُوس

(2) الفتنة

(3) أكادير

(4) تَوْتَمي

(5) غريب

(6) شاهين

(7) أسطورة جبل

(8) جبال أباتشة

(9) خيانة

(10) منطق الطير

(11) النرجا

(12) الفوج

(13) قصر الأولين

(14) تمزق

(15) المنقض

المؤخرة